

نوفيق الحكيم

ليلة الزفاف

مجلد من الطبعة والنشر
مكتبة الآداب وطبعتها بإيجاز في ١٩٧٧
الطبعة السنوية
١٥٠٠ الشاويدي للطباعة

توفيق الحكيم

أما نضائه المرحوم
والخروج البسيط

به السلام
مع الحكيم والرحمة

ليلة الزفاف

مكتبة الطباعة والنشر
مكتبة الآداب ومطبعها بالجاميزة ٢٧٧٧
المطبعة النموذجية
سكة الشاويى للعلامة الجديدة

كتب المؤلف ... نشرت باللغة العربية

- | | |
|--|--|
| <p>٢٣ - يوميات نائب الأرياف ١٩٣٧</p> <p>٢٤ - عصفور من الشرق ١٩٣٨</p> <p>٢٥ - سليمان الحكيم ١٩٤٣</p> <p>٢٦ - زهرة العمر . ١٩٤٣</p> <p>٢٧ - الرباط المقدس ١٩٤٤</p> <p>٢٨ - شجرة الحكم . ١٩٤٥</p> <p>٢٩ - الملك أوديب . ١٩٤٩</p> <p>٣٠ - { مسرح المجتمع
(٢١ مسرحية) } ١٩٥٠</p> <p>٣١ - فن الأدب . ١٩٥٢</p> <p>٣٢ - عدالة وفن . ١٩٥٣</p> <p>٣٣ - أرني الله . ١٩٥٣</p> <p>٣٤ - عصا الحكيم ١٩٥٤</p> <p>٣٥ - التعادلة . ١٩٥٥</p> <p>٣٦ - لايزيس . . ١٩٥٥</p> <p>٣٧ - الصفقة . . ١٩٥٦</p> <p>٣٨ - { المسرح النوع
(٢٠ مسرحية) } ١٩٥٦</p> <p>٣٩ - السلطان الجائر ١٩٦٠</p> <p>٤٠ - ياطالع الشجرة ١٩٦٢</p> <p>٤١ - الطعام لكل فم ١٩٦٣</p> <p>٤٢ - بين العمر . ١٩٦٤</p> <p>٤٣ - شمس النهار . ١٩٦٥</p> <p>٤٤ - مصير صرصار ١٩٦٦</p> | <p>١ - محمد . ١٩٣٦</p> <p>٢ - شهرزاد . ١٩٣٤</p> <p>٣ - عودة الروح ١٩٣٣</p> <p>٤ - أهل الكهف ١٩٣٣</p> <p>٥ - تحت شمس الفكر ١٩٣٨</p> <p>٦ - أشعب . . ١٩٣٨</p> <p>٧ - عهد الشيطان . ١٩٣٨</p> <p>٨ - براكسا: أو مشكلة الحكم ١٩٣٩</p> <p>٩ - راقصة المعبد . ١٩٣٩</p> <p>١٠ - نشيد الإنشاد . ١٩٤٠</p> <p>١١ - حمار الحكيم . ١٩٤٠</p> <p>١٢ - سلطان الظلام ١٩٤١</p> <p>١٣ - من البرج العاجي ١٩٤١</p> <p>١٤ - تحت المصباح الأخضر ١٩٤٢</p> <p>١٥ - تأملات في السياسة ١٩٥٤</p> <p>١٦ - بجماليون . ١٩٤٢</p> <p>١٧ - الأيدي الناعمة ١٩٥٤</p> <p>١٨ - لعبة الموت . ١٩٥٧</p> <p>١٩ - حمارى قال لى . ١٩٣٨</p> <p>٢٠ - أشواك السلام ٧٥١٩</p> <p>٢١ - رحلة إلى الغد . ١٩٥٧</p> <p>٢٢ - رحلة الربيع والحريف ١٩٦٤</p> |
|--|--|

كتب المؤلف نشرت في لغة أجنبية

ترجم ونشر في باريس عام ١٩٣٦ بمقدمة لجورج
اسكوات عضو الأكاديمية الفرنسية في دار نشر (نوفيل)
لديسيون لاتين) وترجم إلى الإنجليزية ونشرت مختارات
منه في دار النشر (يلوت) بلندن ثم في دار النشر
(كراون) بنيويورك في عام ١٩٤٥ } شهر زاد

ترجم ونشر بالروسية في ليننجراد عام ١٩٣٥
وبالفرنسية في باريس عام ١٩٣٧ في داره فاسكيل للنشر،
وبالإنجليزية، نشرت مختارات منه في لندن عام ١٩٤٢ } هودة الروح

ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٣٩ (طبعة أولى)
وفي عام ١٩٤٢ (طبعة ثانية) وترجم ونشر بالعربية عام
١٩٤٥ وترجم ونشر باللغة الإنجليزية في دار (هارفيل)
للنشر بلندن عام ١٩٤٧ وترجم إلى الإسبانية في مدريد
عام ١٩٤٨ وترجم ونشر في السويد عام ١٩٥٥ وترجم
ونشر بالألمانية عام ١٩٦١ وبالرومانية عام ١٩٦٢
وبالروسية عام ١٩٦١ } يوميات نائب
في الأرياف

ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٤٠ بتهديد تاريخي
لجاستون فييت الأستاذ بالكوليج دي فرانس ثم ترجم
إلى الإيطالية بروما عام ١٩٤٥ وإميلانو ١٩٦٢ وبالأسبانية
في مدريد ١٩٤٦ } أهل الكهف

تابع الكتب التي نشرت باللغة الأجنبية

حضور من الشرق } ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٤٦ طبعة أولى . وأعيد
نشره في باريس عام ١٩٦٠ في طبعة جديدة .

عدالة وفن } ترجم ونشر بالفرنسية في باريس بعنوان « ذكريات
قضائي شاعر » عام ١٩٦١ .

بجماليوت : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٠

الملك أوديب : " " " " " " " " " " " "

سليمان الحكيم : " " " " " " " " " " " "

نهر الجنون : " " " " " " " " " " " "

جرف كيف يموت : " " " " " " " " " " " "

بالخروج : " " " " " " " " " " " "

بيت النمل } وبالإيطالية في روما عام ١٩٦٢

الزمار : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٠

مشكلة الحكم : " " " " " " " " " " " "

السياسة والسلام : " " " " " " " " " " " "

الشيطان في خطر : " " " " " " " " " " " "

بين يوم وليلة } وبالأسبانية في مدريد عام ١٩٦٣

الغش الهادئ : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٤

أريد أن أقتل : " " " " " " " " " " " "

(٦)

تابع الكتب التي نشرت باللغة الأجنبية

الساحرة	:	ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٤
دقت الساعة	:	» » » » » » » »
أنشودة الموت	}	وبالأسبانية في مدريد عام ١٩٦٣
لومرف الشباب	:	ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٤
الكنز	:	» » » » » » » »
رحلة إلى القند	:	» » » » » » » »
لعبة الموت	:	» » » » » » » »
السلطان الحائر	}	وبالإيطالية في روما عام ١٩٦٤

(الترجمات الفرنسية عن دار نشر «نوفيل إيديسيون لاتين» باريس)

مقدمة

بعض القصص التي يضمها هذا الكتاب قد بنى على حوادث وقعت بالفعل في مجتمعنا ، كما أن بعضها بنى على ما يحدث في الحياة الإنسانية . وهناك فرق بين تصوير المجتمع وتصور الحياة ، فمصور المجتمع لابد أن يتقيد بما رأى وشاهد وعرف ، إذا أراد أن يكون صادقا ، فلا ينبغى له التعرض لبيئة أو طبقة لا يعرفها .

ملاحظة الواقع شرط من شروط التصوير الاجتماعي ... أما تصوير الحياة فأمر آخر ، لأن الحياة أشمل من الواقع ... فالحياة الإنسانية يدخل في نطاقها الواقع وغير الواقع ، لأن حياة الإنسان - على خلاف حياة النبات والحيوان - لا تقف عند حد الوجود المادى ... بل هى تشمل الوجود فى مختلف نواحيه ، المنظورة وغير المنظورة ، المادية والروحية . ولعل سمو قصة دهاملت ، لشكسبير راجع إلى إحاطتها الكاملة بالحياة البشرية ، فى غرائزها ومشاعرها وخيالاتها وأشباحها وتفكيرها ، فيما هو كائن على الأرض وما هو غير كائن إلا فيما بعد الموت ...

حياة الإنسان هى أعجب ما فى الخليقة لأنها أوسع ما فى الخليقة . والقصة القصيرة ، باعتبارها لونا من ألوان الفن ، يجب أن تتناول ذلك كله فيما تتناول من شؤون الإنسان فى مجتمعه وحياته ... ومهمتها فى ذلك عسيرة ... لأنها فن اقتضاب وتركيز ، شأنها فى ذلك شأن المسرحية والقصيدة .

وهذا التركيز هو الذى قد يجعل منها فن المستقبل - فى رأى بعض أهل الأدب العالمى اليوم - ذلك أن أدب المستقبل لن يحتمل الإسهاب ... وقارى اليوم والغد يكاد تكفيه اللمحة الخاطفة لإدراك الصورة الكاملة ،

وتكاد تغنيه الإشارة عن الإطناب في العبارة ...

فالقارىء الحديث الذى يعيش في عصر الطائرات النفاثات لن يطيق طويلاً الإسترخاء في مطالعة مئات الصفحات ليحيط بصورة من الصور أو شخصية من الشخصيات ... كما أن وجود الراديو والتلفزيون لن يتيح وقتاً لقارىء ينفقه في مطالعة كتاب طويل إلى جوار المدفأة ، كما يقول الأوروبيون ... فإن ركن المدفأة الذى ترعرعت في كنفه القصص الطويلة لأمثال بلزاك ، وفلوبير ، ودستوفسكى ، وتولستوى ، وسكوت ، وديكنز ، وغيرهم ، هذا الركن لم يعد يحتله الكتاب وحده الآن كما كان في الماضى ... بل يشاركه فيه اليوم صناديق الفن الصوتى والمرئى وبرامج مختلفة من مسموع ومنظور ...

أترى مجد القصة الطويلة قد انقضى بانقضاء القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ؟ ...

مهما يكن من أمر ، فإن طابع المسرحية والقصة القصيرة بما فيه من ضغط وتركيز وإيجاز وتليح هو الأدنى إلى طابع العصر الحديث في مستقبله القريب ...

ومن يدرى ؟ ... فقد تدور الأيام دورتها وتصبح البلاغة في عرف العالم القادم ، كما كانت في عرف الأدب العربى الغابر ، هى بلاغة الإيجاز ، يفرضها على العالم اليوم عصر السرعة ... كما فرضها قديماً عند العرب الرحل سرعة تنقلهم بين واحات الصحراء ...

السرعة في كل زمان ومكان تنمى في الإنسان سرعة الإدراك وسرعة التلقى والاستيعاب ، فيستخذ الفن تبعاً لذلك من القوالب ما يتفق مع روح العصر والحياة ...

ليلة الزفاف

انطلقت آخر « زغاريد » ذلك القران الميمون في الساعة الثانية بعد منتصف الليل ... وزف « العروسان » إلى حجرتهما بعد أن رشا بالملح من عيون الحساد ... وأغلق عليهما الباب وصارا وحدهما أخيراً ... وقد اجتازا الأعتاب نحو تلك اللحظة التي لم تخلق مثل كل اللحظات ... تلك اللحظة التي تشع كاللؤلؤة البهيجة في تاج الزمان ... زمان كل فرد على هذه الأرض ... من الملوك إلى الصماليك ... تلك اللحظة التي بذل فيها ما يذل ... ومن أجلها احتشد المعارف والأصدقاء ، واحتفل الأهل والأقرباء ، ونصبت الموائد ، وقرعت الكؤوس ، ولعب الفرع والانس بالرؤوس ، وحمى الرقص وارتفع الغناء ، وسبح الحاضرون وعاموا في أويقات من الهناء ... جامت تلك اللحظة ... قة السهرة ، وقبة الحفلة ، ومحراب الليلة ... لحظة الخلوة بين العروسين ... ويالها من لحظة ! ... كل زوج ولا شك يذكر حيرته وهو يبحث في رأسه عن أول كلمة يخاطب بها عروسه وقد صاروا على انفراد ... أيبدأ بكلمة جدية أم كلمة فكهة ... أم كلمة عاطفية ؟ ... وكل زوجة تذكر « ولاريب إحساسها وهي تنتظر الكلمة الأولى من فم «عريسها» ...

أما عروس الليلة فلم يبد عليها أنها تنتظر شيئاً ... فما كاد باب
حجرة العرس يغلق ، حتى تركت « عريسها » واتجهت إلى منضدة
الزينة ، وجلست ووضعت رأسها الجميل في كفها ... ورأى
« العريس » منها ذلك ، فأقبل عليها يقول :
— أمتبة أنت يا عزيزتى ؟ ... صخب العرس أزجرك فيما
أرى ! ...

فلم تجب ... ولم ير العريس وجهها الذى تخفيه بيديها ، واسكنه .
لم يلبث أن رأى قطرة دمع تفر من بين أصابعها ، وتسقط على
ثوب عرسها الأبيض ... فقال بصرت يتهدج حناناً :
— أتسكين ياسونه ١٩ ...

فلم يسمع منها غير نشيج خافت ... فتألم لها ... انه يعلم
السبب ... إن سنية وحيدة أمها ... وقد فقدت أباهما منذ بضعة
أعوام ... فالافتراق عن هذه الأم العزيزة التى كانت لها كل شىء
ليس بالأمر اليسير ... ولعل هذه الفكرة هى التى كانت تخيم
عليها طول الحفلة ... لقد كانت مطرقة واجهة ذاهلة ، قليلة الكلام .
نادرة الابتسام لخدب عليها ، وأصق خده برأسها ، وقال لها :
— لا تبكى يا عزيزتى سونه ... سأكون لك أما وأباً وزوجاً
وأخاً ... ولن أجعلك تشعرين أبداً أنك فقدت شيئاً أو

فأرقت أحداً ...

فأبعدت رأسها عن خده ، وأرادت أن تتكلم ، ولكن الدموع غلبتها ... فبادر هو يقول لها :

— لا تتكلمي ... إني أعرف ما تريدن أن تقولى ... اطلقي دموعك ولا تكتميهما ... هذا أمر طبيعى ... لست أخشى إلا على عينيك الجميلتين ... ولكن البكاء فى مثل هذه الحال يحلو النفس ، وعمّا قليل تشعرين بالراحة ، ويشرق وجهك ، كأنه شمس تسطع بعد مطر خفيف لطيف ...

فاهتزت كأن فى خوفها معركة ... ثم تشجعت وقالت والدمع فى عينها :

— أريد أن أصارحك بشيء ... هل تسمح لى ؟ ...
— بالطبع يا سـوتى ... بالطبع ... صارحني بكل ما فى نفسك ... ألسنا الآن زوجين ؟ ... لا ينبغي أن يخفى أحداً عن شريكه شيئاً ...

— نعم ، من واجبي أن أقول لك ... وأرجو أن لا تتألم أو تفضب : إني أحب شخصاً آخر ...

لفظتها بسرعة وقوة ، ثم استخرطت فى البكاء ... ودوت هذه العبارة فى أذن العريس كأنها قذيفة ، وأذهلتها المفاجأة ، فلم يحس

ألمها ولا غضبا ... بل لم يشعر بنفسه ولا بما حوله ... ولا بالوقت الذي مر قبل أن يتناسك ويثوب إلى رشده ، ويعى مدلول ما سمع ... وينظر فيما يأنبى أن يصنع ... وكان رجلا رزيناً عاقلاً في نحو السادسة والثلاثين ، علمته تبعات منصبه المحترم أن يزن الأمور ... فسرعان ما ضبط نفسه ، وقال بهدوء ممزوج بالمرارة والعتب الملهذب :

— ألا ترين أن هذا التمهيج جاء متأخر بعض الوقت ؟ ... هل كان لديك مانع من الافضاء به إلى في أيام الخطبة أو قبل إبرام العقد على الأقل ؟ ...

— كان يجب أن يتم هذا القران إرضاء لآمى المسكينة ... كنت أراها أتعس مخلوقات الأرض كلما حاولت إلتئاعها بفسخ خطبتنا ... لقد كان أملها الوحيد ، وحلمها الدائم أن ترائى زوجة رجل مثلك ! ... ولقد خالفتى شجاعتي فلم أجرو على صدمها في آملها ... وهى مسنة ضعيفة مريضة ... إن الله يعلم كم جاهدت كي أكنم عاطفتى وأخفق حبي ، وكى أردت آخر الأمر أن أفهم نفسى أن الماضى قد انتهى بالزواج .. وقد خيل إلى أن قلبى قد استجاب لنداء العقل ، لكنى اللبيلة ، وقد تم الأمر ، وأمسى كل شيء حقيقة ... سمعت صرغات قلبى تهزنى هزاً وتكاد تهدم كيانى ،

أيقنت أنى لن أستطيع المضى فى خداع نفسى ... ولا يلىق بى
المضى فى خداعك ...

كانت تقول ذلك وهى تشفق بكائها وتنشج ... وأطرق
العريس وفكر فيما أفضت به مليا ... ثم قال :

— تصرف سليم ، ولا غبار عليه ... ثقى أنى من جانبي على أتم
استعداد لمعارفك فيما يتجه إليه عزمك ... الحق معك ... لا يجب
أن تخدعنى نفسك ... استمعى إلى صوت قلبك ... وما دام حبك
صادقا ... فليس لأحد عليك سبيل ... إنى أضع حريتك بين
يديك منذ الآن ، وأضع نفسى فى خدمتك ، فلنتدبر الأمر معاً ...
كيف نخرج من هذا الموقف أولاً ؟ ... هبى أنى طاعتك الليلة ،
ما الذى سيحصل ؟ ... ستكون فضيحة لن أرضاها لك ، وصدراً
للأقاويل والإشاعات حولك لن يضب ... ثم هى صدمة قاسية
لوالدتك ... وأنت التى أشفقت عليها من صدمة أخف وأهون ...
إذن ماذا نصنع ؟ ... ففكرى معى قليلاً ...

— أصبت ... إن طلاق الليلة فضيحة ...

— فلنبحث عن حل غير هذا ... ابحنى جيداً ...

— ها أنذى أبحث ...

وجلس كل منهما يفكر ، وقد جعل رأسه فى كفيه ...

وأخيراً نهض العريس صائحاً :

وجدت حلاً ، ربما كان فيه الخير ، ولكنه يتطلب منك بعض
الصبر ، ومنى بعض القدرة على التثبيل ... ذلك أن أطلقك بعد
شهر أو شهرين ، وفي خلال هذه الفترة أظاهر أمام الناس ، وعلى
الأخص أمام والدتك ، أنى فظ الخلق شرس الطباع وإنى أسوأ
معاملتك ... بهذا نعدّها إعداداً رقيقاً لتحمل يمين الطلاق ... بل
قد ينفذ صبرها هي فتحنك قبل انقضاء المدة على طلب الانفصال ،
فإذا تم ذلك رأت بعدئذ حليها ومحط أملها فى ذلك الذى اختاره
قلبك ... ما رأيك فى هذا الحل ؟ ...

— مدهش ! ...

لفظتها وهى تريد أن تكفكف دمعها و تنف ، فلم تجد غير
طرف ثوبها ... فأسرع العريس قائلاً قبل أن تتمخط فيه :

— انتظرى ... انتظرى ... خذى منديلى ، ولا توشحى ثوب
عرسك ، حافظى عليه للقران الآخر ! ...
فتنازلت منديله وهى تقول :

— انك رجل نيسل ... إنى آسفة ... ما ذنبك أنت حتى
أعكر عليك صفو هذه الليلة ؟ ... وماذا جنيت أنت حتى تفجع
هكذا فى عروسل ؟ ... ولعلك علقتم آمالاً كباراً على هذا الزواج ...

فاطرق لحظة ... ثم قال كالخطاب نفسه :
— لا تذكرينى ... أفصد ... لا تعلق على هذا الأمر أهمية ...
— إنى متألّم لك ...

— لا تتألمى لى ... إن بخير ... انك على كل حال است
مسئولة عما وقع لى ... حظى هكذا ... حقيقة لقد وضعت فى هذا
الزواج أمل ، لأنى كنت دائماً رجلاً شحيحاً بعواطفه ضئيلاً
بفؤاده ... استغرقتنى حياة العمل ، فلم أعرف من حياة اللهو
إلا القليل ، ولم أعط امرأة من نفسى شيئاً نفيساً ... ادخرت
كل ما فى قلبى من حب للزوجة التى هى نصيبى ... كنت أنخيلها
فى أوقات فراغى وهى إلى جانبي ، وأنخيل ما أناجىها به من حذب
وعطى وحب وحنان ، كدسته كدناير البخيل على مر الأعوام
من أجلها ... لكن القدر أراد أن يصيبنى فيما كدنت كما يصيب
أحياناً البخلاء فيما يكدون ... لأنه يحلو له السخرية ممن يركزون
همهم فى هدف ... فيترصد بهم حتى يقتربوا منه ، فيعذب به بطرف
أصبعه ، فإذا جهودهم هباء ...

— كل ذلك بسببى ... أنا مجرمة ...
— لا ... مطلقاً ... لا شأن لك بالأمر .. إن مثل مثل ذلك
الذى ظل يجمع المال ويدخره ليشترى به عيناً ، فلما تم له

ذلك واشترى العين وجدها محجوزاً عليها أو مرهونة لآخر
رهناً عقارياً ممتازاً لا فبكائك منه ... فما ذنب العين في هذه
الحال ؟ ... الذنب ذنب الإدخار ... والبخل ... وليتني جعلت
شعارى : « انفق ما فى الجيب يأتك ما فى الغيب » ، ...

إن كلامك يحز فى نفسى كسكين ... لست أدرى ماذا فى
إمكانى أن أصنع لك ... من يدري ؟ ... ربما عوضك القدر عني
خيراً ... وجاءك الغيب بزوجة أحلامك ... انى لم أكن بك
جديرة ...

— هذا لطف منك يا سو ... يا سنية ... سنية هانم ...
اعذرنى .. لم أعد أدرى كيف أناديك ...
— عجباً ... نادنى كما كنت تنادينى منذ لحظة ...
— أمام والدتك بالطبع ... أما ونحن وحدنا ... فلا حق لى ...
— لماذا ؟ ...

— لم يعد لى حق تدليك .. أنت منذ الآن - كما قلت لك -
أجنبية عني ، ولا أدرى ماذا نصنع الآن ، والدتك فى البيت ،
ولا بد لنا من المكث فى حجرة واحدة ... اسمعى : أنت لك
السريـر ، وأنا لى الأرض .. ها هنا بجوار الباب فى ذلك الركن
البعيد ... هيا انهضى إلى فراشك ... أنت فى أشد الحاجة إلى

الراحة الليلة ، بعد كل هذه الأحداث المثيرة لأعصابك ...

— تنام على الأرض ؟ ...

— لا يوجد وضع آخر ...

— هذا صحيح ، مع الأسف ، ولكن سامحني ... أرجوك ...

أهكذا أجعل ليلة عرسك على هذه الصورة غير المبهجة ؟ ...

— مالها ليلة عرسى ؟ ... إنى راض بها .. هل يتاح لكل عريس

مثالها ؟ ... ثقي أنه سيظل لها دائماً فى نفسى ذكرى عزيزة ...

— إنك تريد أن تنفى عنى كل مسئولية .. على كل حال الوقت

الآن غير مناسب لمجادلتك ... فلأعد لك مكاناً مريحاً لمبيتك ...

فأنت الذى أنهكتك ولاشك هذه المفاجأة غير السارة ... أرى

فوق السرير مرتبتين ، فلأفرش واحدة منهما على الأرض ...

وليسكن توزيع المسكانيين بيننا بالقرعة ... ما رأيك ؟ ...

قال لها مبتسماً :

— موافق ... إنى مطمئن إلى سوء حظى ...

ونهمضت من فورها ... ونهض هو ... فتعاوناً على نقل إحدى

حشيتى السرير إلى ركن من أركان الحجرة ... وأخذت هى فى

وضع الوسائد وتهيئة ذلك الفراش الأرضى ، حتى فرغت منه ،

فطلبت إليه عملة من ذات القرش ، واتفقا على أن الذى يخرج له

الوجه ذو الصورة يظفر بالسريـر ... ورمـت بالقطعة النقدية في
الفضاء ، فإذا هـى الظافرة ... فقال لها :

— ألم أقل لك إنى أعرف بخفى ١٩ ...

— إنى أخطأت الرمى ، فلنعد القرعة من جديد ...

— لا ... لا ... من فضلك ... حافظى على مبدئك : الصراحة

والصدق وعدم الخداع . لقد كسبت أنت ، وخسرت أنا ... فلا محل
للمراوغة ولا لزوم « للحمراء » ...

فقبلت على مضض ... وخرج من الحجرة إلى أن خلعت ملابسها
واندست فى سريرها ، فعاد وخلع ملابسـه وأدى إلى فراشه ...
ومدت ذراعها البضة المرمرية إلى زر المصباح بقربها وهى تقول
مستأذنة :

— هل أطفىء النور ؟ ...

— إذا شئت ... وأتمنى لك نوما هنيئاً ... ومستقبلا سعيداً

مع من اختاره قلبك ... وإنى واثق من أنك أحسنت الاختيار ...
ولو أنك لم تحدثينى عنه ...

— إنه ضابط ... ملازم أول ...

— وشاب جميل بالطبع ، ويصغرنى بعشر سنوات على الأقل

فلا جدوى فى منافسة ... ولا أمل فى مقاومة ...

لفظها هامساً وهو يخاطب نفسه ، فسألته :

— ماذا تقول ؟ ...

— لا شيء ... أطفئ النور ... تصبحى على خير ...

* * *

مرت الأيام والزوج يمثل الدور المتفق عليه خير تمثيل ، ويشعر حماته يرفق أنه ليس الزوج المثالى الذى كانت تتمناه لوحيدها ... غير أن المشكلة التى استعصت عليه هى مسألة الحجرة المشتركة .. إن هذه الحال بينه وبين زوجته ، المزبغة ، لا يمكن أن تدوم على هذا الوضع ... لأنه لا يستطيع النوم وهى معه فى غرفة واحدة ، هكذا كأنهما غريبان ، وبينهما حيوان شهران ، بالحرمان يزار ، وبالرغبة يحار ... إنه يحس كأن أنفاسها الحارة تلفح وجهه ... كل حركة منها تطرد النعاس من أجفانه ، وإذا سعلت نهض بمجرد نفسه من غطائه ليدثرها به ... وإذا نفذ شعاع القمر من النافذة ، قام على أصابعه يتأمل وجوها البديع الساج فى ضوءه ، ثم يسدل بعد ذلك الأستار ، حتى لا يزعجها النور ... وإذا قلبت على أحد جنبها قلب هو أيضاً ... وإذا نهضت بالليل لحاجة ، تصنع النوم العميق وكنتم أنفاسه المضطربة ، حتى لا تعلم أنه يقظان .. إنها هفتنة دائمة نائمة فوق سرير ... واسكنها مستيقظة نائرة ساهرة فى

جوفه ... كل شيء منها يقض مضجعه ... ويحطم أعصابه وإرادته
ويجعله يضطرب في فراشه كأنه ريشة : رائحة جسدها في أنفه ،
وتهدأتها اللطيفة في النوم ، وشخيرها الخفيف الهامس المتقطع ،
وطريقةها العجيبة في نومها ، وهي منبطحة على وجهها ، بشعرها
المتدلى ونحرها العارى ووسادنها التى تضغطها وتضمها فى حضنها ...
إنه لعذاب لا يستطيع أن يتحملة رجل من لحم ودم ... إنه تحمل ذلك
ليلة وليلتين وثلاثاً وأربع ... وكاد ينقض الأسبوع ... ولكن
المضى فى ذلك فوق الطاقة والاحتمال ... كيف يصنع ؟ ...
والبيت ليس فيه للنوم غير المكتب أو البهو أو قاعة حجرتهما هذه
ثم حجرة أخرى تشغلها حجراته ، أبيت فى قاعة الطعام ؟ ...
وما عسى أن يقول الخدم والحماة فى هذا التصرف من عريس ؟ ...
وحماة لن تفارقهما أبداً ... إذ ليس لها غير ابنتها ملاذاً ...
لم ير إلا أن يصبر صبراً جميلاً ... وأن يسرع فى إنهاء مهمته ...
وجعل يشتد يوماً بعد يوم فى إظهار غلظ طابعه . . . وحماة
تتغاضى حرصاً على هناء ابنتها ... وابنتها لم تكن متقنة لتشيل
دورها ... فما كان يبدو عليها غضب من طبايع زوجها الماوهوة ...
ذلك أنها كانت تعلم أنه إذا خلا بها فى الليل جعل يعتذر لها عن
إساءات النهار ... وانتهى بها الأمر أن صارت تسر لهذا اللون من

التمثيل كأنها طفلة، وتكاد تضحك بدل أن تغضب . ودو يغمزها بعينه ، ويخثها على التظاهر بالتقطيب ... بل كانت تغلط أحياناً وتدافع عنه أمام أمها أو الزائرين إذا وجه إلى طبعه نقد ... فتغلت من بين شفيتها كلمة « والله مظلوم ! ... »

إلى أن جاء يوم خطر فيه للزوج خاطر، وجد فيه العلاج لسهاد الليل .. ذلك أن يلجأ إلى منزل صديق قديم عزب ، يرتاح عنده وينام من العصر حتى المساء ... وأخبر حماته وزوجته أن أعمالاً طرأت ترغمه على هذه الغيبة ... وصار لا يعود إلا في العاشرة ... وأحياناً في منتصف الليل ... ولا ضير عليه في ذلك ، فهذا يمكن أن يدخل ضمن برنامج التمثيل لدوره البغيض ...

وعاد ذات ليلة في الثانية صباحاً ... فقد دعى إلى عيد ميلاد صديق ، وكانت ليلة بريئة فيها طرب وغناء ومزاح ... فرأى الدهشته ، زوجته تستقبله في سريرها مستيقظة مقطبة ... لا تقطيب تمثيل ... بل تقطيب غضب حقيقى ... فلما أبدى لها العذر، وبين لها السبب ... سكنت غير مقتنعه ولا راضية ...

ومرت أسابيع ، فإذا هي تطلب إليه يوماً أن يذهب بها إلى السينما .. ورأى حماته تحبذ الفكرة قائلة :

— نعم ... اذهب يا ابني بعروسك وتنزها معاً كما يفعل كل

« العرسان » ! ...

فرأى من واجبه أن يكون فظاً سيء الأدب ... فقال :

— ما كان ينقصني إلا هذا : أنا أخرج مع بنتك إلى السينما ؟ ...

— وما المانع ؟ ... أليست ظريفة جميلة ؟ ... إنها عروس

تشرف أحسن عريس ! ...

— هذا رأيك أنت وحدك ...

— عيب يا ابنى ...

— على كل حال ، ليس عندي وقت أضيعه في نزهة بنتك ...

وهنا احمر وجه الزوجة غضباً ، وقالت :

— وعندك وقت تضيعه في السهر لما بعد منتصف الليل ؟ ...

— هذا شأنى ...

— لن أخرج معك في حياتى ... أبداً ... أبداً ...

وتركته وانصرفت مسرعة إلى حجرتها ... وأطرقت الحماة

أسفاً وألماً ... أما هو فقد خرج إلى شأنه ، كما اعتاد أن يصنع في

كل يوم ... ولم يعلق بنفسه شيئاً مما حدث ، كالمثل بعد تركه

خشبة المسرح ، وقد ضرب عليها وطعن وجرح ... وعاد في المساء

فوجد زوجته في سريرها ، ووجهها في وسادتها وقد بللتها بدموعها ...

ولم تتحرك لدخوله ... وحسبها هو نائمة ، لولا شهيق خافت ،

ونشيح غير مرتفع نبه ... فذهب إليها يقول :

— مالك ؟ ... مالك ؟ ...

فرفعت رأسها من فوق الوسادة ، والتفتت إليه وخيوط

العبرات تلمع على خدها ... ولم تجب ... فقال لها بحنان :

— لم أرك تبكين هكذا منذ زمن بعيد ... أهو أيضاً ؟ ...

— من هو ؟ ...

— الملازم ...

— أى ملازم ؟ ... آه ...

لفظتها مستدركة ، ثم قالت سريعاً بنبرة عتاب مرة :

— لا ... لا تحاول التهرب من إساءتك ... بل إساءاتك

المتكررة ... إنى لا أستطيع أن أحتمل منك أكثر مما تحملت ...

هذا كثير على ... ما من امرأة تتحمل هذا من رجل ! ...

— ماذا فعلت يا ناس ؟ ...

— أتسخر أنك آلمتني اليوم ؟ ...

— تمثيل طبعاً ...

— هذه حجة بالية ... إنك الآن صرت تجعل من هذا التمثيل

ستاراً تخفى وراءه كرهك لى ...

— سبحان الله ! ...

— إنك الآن أمسيت تتحاشى رؤيتى أطول وقت مستطاع
أتذكر ذلك؟ ... إنك تهرف مبكراً فى الصباح وأنا نائمة،
ولا تعود إلا فى الغداء ... ثم تخرج فلا أراك إلا فى العاشرة أو
الحادية عشرة أو منتصف الليل ... إني أسألك وإسأل نفسى :
ماذا فى وجهى ينفرك، أو فى شخصى يبعدك؟ ...

— أهذا معقول؟ ...

— أقسم أنك لا تنفر منى ؟ ...

— أقسم أن هذا لم يخطر لى على بال ...

— لقد كنت ظريفاً معى فى أول عهدنا ... شديد العطف
على ... كثير الحنان ...

— وأنا الآن كما كنت ... لم أغير ...

— نعم ... أحياناً ونحن وحدنا فى هذه الحجرة تتلطف معى ،
ولكنك أمام الناس ...

— بالطبع ... أمام الناس يجب أن أكون غير لطيف ...
طبقاً للخطة ...

— أى خطة ؟ ... أتعرف أنها أمست لعبة سمجة ؟ ...

— ولكن ... هذا لا بد منه ...

— كان يسرنى تمثيلك أول الأمر ... ولكنى الآن أراك

جاءاً فيه ، ويبدو لي كأنه حقيقة ...

— كثرة الممارسة تعلم الإتيان ...

— كنت أفضل أن لا تتقن هذا الدور ... حتى لا يخالفني

شك ... كل كلمة منك الآن تطعنني حقيقة ، وتدميني ... يجب أن

تتوكل قليلاً ... لم يعد الأمر في نظري تمثيلاً ... لقد اختفت كل

لفظة رقيقة . لماذا لا يمتد إتيان دورك أيضاً إلى مايسرنى ؟ ...

كنت تقول لي أمام والدتي « يا سونة » وأحياناً ... « يا سوتى » ..

ماذا حدث ؟ ... لماذا لا أسمع هذا النداء منك اليوم ؟ ...

— حصل تغيير في الخطة .. نظراً لضيق الوقت ...

— ضيق الوقت ؟ ...

— ألا تعرفين ؟ ... نحن اليوم في آخر أسبوعنا السابع ...

ولم يبق أمامنا سوى بضعة أيام لنفترق ...

— بهذه السرعة ؟ ... أرائق أنك لم تخطئ ؟ ...

— اطمئني ! ... إني لا أغلط في الحساب ... وكل يوم يمر

أعده بكل دقة ...

— تعد الأيام لتتبع رقبتيك ! ...

— أنا ؟ ! ...

— لم يبق إذن سوى بضعة أيام لنفترق ! ... ما أشد سرورك ! ..

- حدثني ماذا ستفعل بعد ذلك اليوم؟ ... وأين ستسكن ؟ ...
- لا أدري ... لم أضع بعد برنامجاً لحياتي المستقبلية ...
- كم أتمنى أن تكون سعيداً في حياتك المستقبلية ... ترى هل ستذكر بالخير أو بالشر أيامي معك ؟ ...
- بالخير طبعاً ...
- وهل سيكون شخصي عزيزاً عليك ؟ ...
- دائماً ...
- أشكرك ...
- نامى الآن هادئة البال ... لقد تأخرت عن موعد نومك ...
- وجذب الأغطية ، وغطاها جيداً ، ومست كفه وجهها عفواً ، فرغت خدها في يده ، كأنها قطة تتمسح في صاحبها وأحس دفء ذلك الخد الخملئ الأسيل ، فسحب يده برفق ... وأطفأ النور في سكون ، وذهب إلى فراشه صامتاً ...

* * *

مرت الأيام الباقية مرأً سريعاً ، في جو عجيب رهيب ... فهي قليلة الكلام ، نادرة الابتسام ، بادية الكتابة ... وكان على وجهها من الحزن المكتوم سخابة ... يجيبه إذا تحدثت بنظرة فيها أشياء ، يفهمها ويعلمها ، ويهتز لها في أعماقه كأنها قصيدة بليغة ... وقد شقت

عليه مهمته ، فجعل يتجاهل على نفسه ليستطيع أن يمعن في إساءته لها أمام والدتها ...

ونهايات أخيراً الظروف التي استطاع فيها إصدار ذلك القرار الحاسم ، دون أن تتأثر الأم كثيراً أو تخذش سمعة الزوجة ...
جاءت الليلة الأخيرة ... فتعتمد الزوج أن يود في المزيج الأخير من الليل ، حتى يكون التعب قد أرغمها على النوم ، ولكنه وجدها ساهرة مستلقية على ظهرها فوق سريرها ، وضوء الصباح على وجهها الشاحب ، وكأنها أشخص ببصرها إلى السقف ...
فقال لها :

- عجباً ! ... ألم تنعسى بعد ؟ ! ...
- كنت أنتظر عودتك ...
- لو كنت أعلم ذلك لجئتكم مبدراً ...
- إنك تعلم ذلك ...
- ما هذه اللامجة المكتئبة والوجه الحزين ؟ ...
- ليس هناك ما يدعوني إلى الفرح والاعتباط ...
- على النقيض ... كان يجب الليلة أن تكوني مسرورة
- مرحة ... غداً تكونين حرة ، وتستطيعين الزواج من تحبين ...
- إنك تعبر عن إحساسك أنت ...

— لا شأن لك يا حساسى من فضلك ، إني منذ خلوت بك
فى هذه الحجرة ، فى ليلتنا الأولى ، وأنا لا أهتم إلا بشعورك أنت
وحدك ، وموقفك ومشكلاتك ؛ وقد عاهدتك على ذلك ... وأظن
أنى قد بررت بالوعد ا ...

— نعم ... لقد كنت رجلاً شريفاً ...

— الحمد لله ...

ورقع بينهما صمت عميق .. واضطربت فى شفيتها كلمات ،
لم تجرؤ على إخراجها ... وأخيراً تشجعت وقالت :
— إذن أُرِقت الساعة ...
— أعتقد ذلك ...

— هل ... هل تحب أن تعرف شعورى الآن ... أو ترى
من مصلحةك أن تتجاهله ؟ ... ثقب أنه يشق على نفسى إخراجك ...
أظن من الخير لك أن أسحب كلامى ، ولا أسألك شيئاً ...
وليكن ما فى قلبى مكتوماً ، ولا يجب أن أطمع فى نبلك أكثر
من ذلك ...

— أفصحى وكونى صريحة دائماً ...

— إذا طلقتنى فأنى أموت ...

قالتها سريعاً ، وأخفت وجهها فى كفها ... ولم يكن فى صدقها

خلجة شك ... وكان صوتها صوت الصدق نفسه ، لو أنه أعطى.
لساناً ... فجلس زوجها على حافة سريرها ، وأمسك بيدها وقال :
— اسمعى يا ... سسنية ! ... من الصعب على أن أنسى أنك
أحببت شخصاً آخر ... ذلك الحب الذى رأيت بعينى آثاره فى
وجهك ليلة عرسى ! ...

— أعلم أنك لن تغفر لى ذلك ... وأحب أن تعاقبنى العقاب
الذى تراه ، ولكنى أرجوك أن تصدقنى إذا قلت لك إن عواطفى نحو
ذلك الشخص كانت عواطف طفلة لم تعرف بعد ما هو الحب ! ...
— إنى لا أكذبك مطلقاً ... غير أنى واثق أنك تقدرين.
موقفى ...

— نعم ... أفدر موقفك ... وأدرك ما يجول بخاطرك ...
وأعرف السؤال الذى يمنعك أدبك من أن تدأنى إياه ... ولكن
أقسم لك أنه لم تكن بينى وبين ذلك الشخص علاقة تجعل أو
صلة تشين ... كل ما فى الأمر أنه كان جارنا يوم كنا نقطن
فى حى « العباسية » وكنت ككل فتاة يهرها ذلك الزى العسكرى
والقوام الممشوق ، وكان يحبينى وأحبيه كلما تقابلنا فى الطريق ،
وكان يحدثنى فى التليفون ... ولكنى لم أخرج معه قط ... ولم
يجتمع على انفراد ... أوكد لك ذلك وأحلف بكل يمين ، وسيأتى

الوقت الذى تتحقق فيه صدق قولى ...

— إني أرى الصدق فى عينيك ... وهذا يكفينى ... ولكنى
أخاف من أمر آخر ... حقيقة شعورك نحوى ... هل أنت واثقه؟ ...
— كل الثقة ...

— كيف تقطين بذلك ؟ ...

— إنك ترتاب ، لأنك لا تعرف الحب ... ولكنى أخبرك
ما هو ... إنه ليس فى تلك البهرة العاجلة التى تخطف أبصارنا ،
ولا الهزة المفاجئة التى ترج قلوبنا ... ولكنه شئ يتكون على
مهل كالجنين ... أنه ينسج فتلة فتلة ، ويربط عمدة عمدة ، كشغل
« التريكو » ... هكذا يتوثق الرباط بين قلبين ... مهما تشك فى
قولى ... فأنى لن أستطيع التخلى أبداً عنك ... إنك ضرورى لى ...
بكل حسناتك وسيئاتك ... إنك لازم لى ، بمجرد وجودك فى هذه
الحجرة ... أسمع سعالك ، ويورقنى غيابك ... وتسرنى هودتك ،
ولو بعد منتصف الليل ، ويضحكنى بحثك فى الصباح عن جواربك
تحت السجajيد ، وعن حذائك تحت الأمتعة ، ووجهك الملطخ
بالصابون وأنت تخلق ... وجرحك لوجهك بالموسى ، ونسيانك
منديك قبل خروجك ... واعتمادك على " لاذكرك بمحفظتك الملقاة
على منضدى . وابتسامةك الساذجة اللابيدة ، وأنا أنمطى فى الصباح

وأثناء ، وغضبك المفتعل وصياحك التثليل أمام والدتي ،
وكلامك لي عن عمك كأنني أفهم دقائقه ... ثم نذكرك فجأة أنني
لست حقيقة لك ، فتبدى معي التكلف .. ثم تنسى فتبسط وتدللني
وتلطفني ... وتطرى ثوبى الجديد ، ثم عادتك في الطعام عرفتها
وتعلمتها ... فالخبز يجب أن يسخن ويحمر ، والأرز يؤكل مع
الخنصر ... حتى نومك ... عرفت في أي ساعة من الليل تكون
على جنبك الأيسر ... كيف تريد أن أتخلى عن كل هذا ؟ ... تلك
تفاهات صغيرة ، ولكنها هي الحلقات الدقيقة الوثيقة في « تريكو »
الحب الزوجي ...

— « تريكو » ! ... ياله من تعبير ! ... لا تنسى الإبرة الطويلة
من فضلك ! ... إنها خطيرة ، وهي في يدك أنت ! ...
فضحككت ضحكة رقيقة ... ثم قالت بنبهة جد :
— لا تخش شيئاً مني أبداً ...
فأطرق مايا ... ثم رفع رأسه وقال :
— سونه ... دعى لي وقتاً للتفكير ! ...
— لم أسمع منك لفظ « سونه » منذ دهور ! ... لم كل هذا
الخوف مني ؟ ...
— ليس منك ... ولكن على كنوزي ... كنوز البخيل التي

ادخرها في قلبه ... فامى يا «سونه» الآن ، وفي الصباح نفكر وقد
يأتى الفرج ...

وغطاها كما اعتاد أن يفعل ، وأطلقا النور ، وذهب إلى فراشه
الأرضى فى ركن الحجرة ...

ولم يسكد يارى إليه ، ويسحب غطاءه عليه ، حتى سمع صوت
«سونه» تثب من سريرها ... وإذا هى قد دلفت إلى فراشه ،
واندست تحت الغطاء إلى جواره والتصقت به والتحمت بجسده
وهى تقول :

— أنت زوجى أمام الله والناس وقلبي ، ولن تغفلت من بين
ذراعى أبداً ...

وطوقته وضمته ... وإذا هو يجد نفسه فى مكان الوسادة التى
اعتادت أن تحتضنها ليلا ...

وكانت تلك هى ليلة عرسهما ، ولعلها أول مرة فى تاريخ
الزواج ... يهجر فيها العروسان سرير الزفاف ، ليفترشا الأرض
متعانقين ...

طريد الفردوس

— سنذهب إلى الفردوس ...

— بعد عمر طويل ... إن شاء الله ! ...

— الآن ...

قالها صاحبي المرح ، وهو يدخل بي ذلك المساء حاة من
حانات القاهرة ، كسب على بابها بلون أخضر « بار الفردوس » ،
وأجلسني من الفور وجلس إلى مائدة ، يبدو أنها محجوزة له ،
موقوفة عليه ... وأدار بصره في المكان وحيا بنظرة صاحب البار
واحوانه ، وبابتسامة حور الحان ولدانه ... وصفق طالباً
الشراب وهو يتلو :

— قال الله تعالى . وما الحياة الدنيا إلا متاع ...

— أكل الآية من فضلك ...

— لم يتسع فؤادي لأكثر من هذه الجملة ...

وأقبل الساقى بالآقداح ، وأراد صاحبي أن يقدم إليّ فدحاً ،
فقلت له :

— ذنوبي قد فاضت بها كأسى فلا حاجة بي أن أزيد عليها

فدح خمر ... إذا أردت أن تكرهني فأطلب لي عشاء ! ...

فأذعن لرغبتى ... وطاب لى الطعام ، فطفقت ألتهم ، وجعل هو يرشف من كأسه ... ويقول :

— يعجبنى أن يعرف الإنسان أن له ذنوباً ... إذا عرفنا ذنوبنا عرفنا حدودنا .. وإذا عرفنا حدودنا لمناها وأبيننا أن نتعديها ... وهأتذا قد رفضت أن تتعدى حدودك ! ... سأقص عليك قصة ثقى أنها ليست من وحى شرابى ، لقد وقعت بالفعل وفى هذا المكان بالذات ... وإذا لم تصدقنى فسل كل هؤلاء الحاضرين ... ولكنك تعرف أنى لم أكذب عليك يوماً ...

فلم يستطع فى المملوء بالطعام أن يجيب ... فاكشفيت بهن رأسى علامة المصادقة ... فضى الصديق روى قصته :

— اهدت أذكر هل سبق لى أن حدثتك عن ذلك الشيخ الصالح الذى يتبرك به أهل بلدنا فى الريف الشيخ عليش ... رجل ولد بعينين فى رأسه ، ولمكنه لم ير بهما غير السماء ... ويبدو لنا أنه منذ نزل من بطن أمه ، وضعوه فى إناء من زجاج وختموا عليه ، حتى لا ينفذ إليه هواء البشر ، ولا تنسل إليه جرثومة من جراثيم الشر ... رجل لا يعرف ما هو الذنب ، ولا السيئة ولا الزلة ولا المعصية ... ما كنا نجره إلا ساجداً أو هاماً فى ملكوت الله ، لا يقطن لى نفسه ولا إلى من حوله ... ولا يفرق بين الناس

والهوام ... لم يؤذ إنساناً ولا بعوضة ، ولا يملك من دنياه غير
مسيحة من حصي ، وغير موسى يخلق بها شعر رأسه ، وغير عمامته
العتيقة ، وأطواره المهمة ، ولحيته المرسلة ... هكذا عاش ، يأكل
من عشب الأرض أحياناً كآه دابة ، ويقضم ما يلقى في حجره
أحياناً من كسرات المحسنين على غفلة منه أو سهوة ، فهو لا يسأل
أحداً شيئاً ... ولا يطلب إلى الدنيا متاعاً ... إلى أن مات الشيخ
ذات يوم ولم يبلغ الأربعين ... وكنت بالمصادفة في الريف ،
وأبصرته بعيني مع غيري من الناس ، وهو ملق في مكانه ، مسجى
على الغبراء ، وقد طرحت عنه عمامته ، فبدأ رأسه الخلق ، كالصخرة
اللامعة الملساء ، وسقطت إلى جانبه المسبحة ، وظهرت من
حزامه يد المرسى ... وسكنت حركة لحيته التي ما كانت تهتز
إلا لذكر الله ... وهبطت على الناس رحمة به ، فأجمعوا على أن
يبنوا عليه ضريحاً ... وما تركت الريف حتى كان الضريح قائماً على
جثمان الشيخ عليلش ، وقد ساهمت بنصيب في إقامته ، وقلبي جياش
بالتأثر ، ونفسي فياضة بالخشوع ... وعدت إلى القاهرة ، وعاد
إلى ضعفي ، قاتله الله ... وجذبتني قدمي إلى مكاني المألوف من هذه
الحانة ... فما نحن إلا بشر ، لم يكتب لما السمو على أنفسنا غير
لحظات ... ومرت أيام ... وإذا بي أسمع جلبة من مكاني هذا ،

فاستدرت فأبصرت على هذه المائدة ، من خلقى شيخاً رث الهيئة ،
قد أحاط به خدام المحل ، يحاورونه ويحرجونه ويفهمونه أن الموضوع
ليس موضعه ، وأن من الخبير له أن ينصرف بالحسنى ، فتبعت
المحاورة ، ثم سددت إلى الشيخ البصر ... ويا لهول ما رأيت ...
كلا ... إنه ليس الوهم ولا السكر ولا الجنون ... بل هو الشيخ
عليش بشخصه ولحمه ودمه وعمامة وأسماله ومسبحة وموساه ...
وفركت عيني وطلبت فتجاناً من قهوة ثقيلة أستمعين بها على اليقظة ...
ثم سألت صاحب الحانة أن يتحن عقلي ... وطلبت إلى غانية من
حسان المكان أن تفحص صحوى ، فنظرا إلى بريبة أول الأمر ،
واسكنهما خضعا لإصرارى ، ولم أتركهما حتى أقرأ واهترفا إلى
نائب إلى رشدى ، مالك لصوابي ... فتقدمت إلى الشيخ ، ونحيبت
عنه الخدم ، وقلت له بصوت متهدج :

— ما اسمك أيها الشيخ ؟ ...

فأراعى إلا فوله ، بعد وصراحة وثبات :

— عليش ! ...

وكان الصوت صوته ، والنبرة نبرته ، فكذبت أجن ، ومضيت

استفسر منه :

— الشيخ عليش من بلدة ...

فذكر لى اسم البلدة والقرية من ذلك الريف بما لم يدع فى
نفسى ذرة من شك ...

— ساكن الضريح الذى ساهمت فى ...

— نعم ...

— وكيف تركت ضريحك وجئت هاهنا ؟ ... لقد أبهرتك

بمعنى رأسى وأنت ميت ...

— نعم ... لقد مت حقاً ... وأردت أن أدخل الفردوس

واسكنهم طردونى ! ...

— الفردوس !؟ ... أيمكن أن يغلط الإنسان إلى هذا الحد ؟ ...

ألا تستطيع أيها الشيخ أن تفرق بين الفردوس الذى فى
السماء ، و « بار » الفردوس الذى فى شارع عماد الدين !؟ ...

— لا ... لم يحصل منى غلط ! ... لقد صعدت فعلاً إلى السماء ،

وطرقت باب الجنة ، فمنعنى حارسها من الدخول ، وأعلن إلى أنى

لست من أهلها ، ونصح لى أن أطرق باب النار ، فصعدت بالامر

دهشاً حزناً وطرقت باب النار ، فمنعنى حارسها أيضاً من الدخول ،

وأعلن إلى أنى لست كذلك من أهلها ... خرت فى أمرى ،

وصحمت شاكياً ... سائلاً الهداية ، طالباً البت فى مصيرى ، وأخيراً

قالوا لى : ليس فى السماء موضع أوضع فيه ... لأن الدنيا معركة

بين الخير والشر ، ومبارزة بين الفضيلة والرذيلة تقوم في نفس الإنسان ، فإذا انتصر الخير دخل الإنسان مملكة الخير وهي الفردوس ، وإذا انتصر الشر دخل مملكة الشر وهي الجحيم ... أما أنا فلم تقم في نفسي معركة ، ولم يحدث انتصار ، ولم أواجه الشر لأغلبه ... فأنا في نظرهم كائفار من الميدان ، أو الهارب من الامتحان ، فكيف يجوز لهم أن يثيبنوني أو يعاقبونني ، وأنا لم أعرض نفسي لأحداث الحياة ، حتى يظهر معدنها الخير من معدنها الشرير ؟ .. اني في نظرهم غشاش مخادع ، لجأ إلى أيسر السبل اينال الجائزة دون أن يواجه الخطر ! ... وانتهى أمرهم إلى اعلان هذا القرار في أمرى : وهو إلغاء حياتى الأولى واعتبارها كأن لم تكن ، وطردى من السماء ، لأعيش مرة أخرى على الأرض ، بنفس جسمى وروحى وكيانى الأول ، على أن أتقدم للإمتحان المسير وأواجه الشر وأنازل الرذيلة ليعرفوا بعد ذلك من أمرى ما ظنر وما استتر .. وألقوا بى إلى الدنيا من جديد . بعين ثيابى وهيبتى ، فوقعت على القاهرة ، وأنا لم أزل فريسة حزنى وبأسى من ضياع جتنى ، أردد كالمجنون عن غير وعى : « الفردوس .. الفردوس ! ... » فدفعنى أحد المسارة إلى هذا المكان قاتلا لى : « ها هو ذا الفردوس ! ... » فدخلت ، وإذا بى

أجد فيه أيضاً من يطردني منه ... حتى أنقذتني أنت أيها الرجل الطيب ...

عجبت لقصة الشيخ ، وأخذتني به شفقة ... وقلت له :
— لا عليك أيها الشيخ المبروك ... ما حدث لك لا يحدث
لأى إنسان ... إنما هي كرامة من كرامات أولياء الله ... أن
يسمح للبشر أن يعيش مرتين في هذه الدنيا ...
ثم أنهضته برزق وأجلسته باحترام إلى مائدتي ، وقلت له :
— والآن ، ماذا تنوى أن تصنع في حياتك الجديدة ؟ ...
— أواجه الشر ... إذا أردت أن تتخذهني أيها الرجل الطيب
فداني أين أجد الشر ...
فضحك قليلاً ، وقلت :

— هذا شيء بسيط ... وإن كنت شخصياً است بالدليل البارح
في هذا السبيل ... ولكنني أستطيع على كل حال أن أعرفك
بالشر في أهون مظاهره ...
وصفقت للساقى فخر ... فقلت له :

— زجاجة شمبانيا لفضيلة الشيخ ...
فحلق « الجرسون » ، في وجهي ثم تبه وأسرع يلبى الأمر
ولم يلبث أن عاد بالزجاجة غارقة في إناء الثلج ، وفض خانمها

الفضى ، فانطلقت السدادة كأنها مدفع ... نبه إلينا حسان
الحانة ... فصوبن إلينا نظرات دهشة مذهلة ، أتبعننا ببسمات ثم
ضحكات ... خافتة مكتومة لهذا المنظر الفريد فى الدهر ...
— فى صحتك ! —

ورفعت كأسى وأشرت إليه أن يرفع كأسه ... فرفعها بيد
مرتجفة ورشف منها بحذر كأنما يرشف سمّاً ... ولم بدر بخلى
قط أنى جرعه حقاً سمّاً سيسرى فى حياته الجديدة ، ويفعل بها
الأفاعيل ... ولم أظن للأمر إلا بعد أن جرع الشيخ كأسه
الثالثة ... وثمل وانقلب يغنى بالواشيح الدينية والمدائح النبوية ،
ثم يسبح بأسماء الله على مسبحته بصوت السكارى ... وهذا كل
ما يعرف طبعاً من غناء دفعته إليه النشوة ... فبذلت جهداً فى
اسكاته ، خشية الفضيحة ... وصيانة لمقام الدين ونحو فى هذا
المجال ... فاقنع الشيخ ، وترك الغناء بهذه الأشياء المقدسة ...
وتلفت ذات اليمين وذات اليسار فليح غانية ظريفة فتنهح و قال :
— أعطى هذه الحورية ! —

فالومات إليها ، فأقبلت وجلست وأوصيتها بمدحبة الشيخ ،
فداعبته ولاعبته حتى ذهبت بيقية ليه ... وخطر له وهو فى أوج
انشراحه وترنحه أن يسألنى عن اسمى ، فراوغته ، فقال :

— ولماذا أسألك ؟ ... أو تظننى أجملك ؟ ...

— أتعرفنى ؟

طبعاً ... أنت رضوان ... الذى أدخلنى هذا الفردوس

بحوره العين ... !

وقهقه ضاحكاً ، ومال على الغانية يضمها ... واتصف الليل
ثم دقت الساعة الواحدة ، وأقفرت الخانة ، وأراد صاحبها أن
يغلقها ... وهنا راحت السكره وجاءت الفكرة ... ماذا أنا صانع
بهذا الشيخ صاحب السكرامات ؟ ... وأين يكون مقره ومقامه ؟ ...
ليس من المعقول أن أسجبه معى أو أذهب به إلى منزلى .. وليس
من المعقول أيضاً أن أردّه إلى ربفه وأعيده إلى ضريحه ...
ما الحل ؟ ... أين يبيت ليله ؟ ...

وتأملت الأمر ملياً ... ثم قلت فى نفسى : ولماذا أتعب نفسى
به ؟ . ما شأنى بهذا الشيخ ولى الله ؟ .. هل عيّننى أحد ولى أمره ؟ ...
وهل قذفوا به من السماء لأحمله أما على ظهرى ؟ . ،

وهدانى الله إلى وسيلة ... أن أنقذ الغانية مبالغاً لتخرجنى من
المأزق ، وتقبه معها ريثما أنصرف بسلام .. ولها بعد ذلك أن
تؤويه أو تلقيه ...

ونتملى ما دبرت ، وأنقذتنى الغانية الكريمة ، وانصرفت إلى

يبقى ، وانقطعت عن هذه الحانة أسبوعاً ، خشية أن أصادف
الشيخ ، فيتعلق بي ويرغمي على مصاحبته وسامراته وتحمل تبعته
وشأنه وهمه ومستقبله ...

وهضى الأسبوع فلم أجازف بالذهاب .. وآثرت الاتصال بصاحب
الحانة بالتليفون ... فما كاد يسمع صوتي حتى صاح بي قائلاً :
— ما هذه المصيبة التي نزلت علينا ؟ ...

— أى مصيبة ؟ ...
— صاحبك الشيخ ... إنه لا يريد أن يترك المحل لا ليلاً
ولا نهاراً ... وكلنا نأفئناه صاح فينا : لن أذهب أبداً .. المؤمن
لا يطرد من الفردوس مرتين ...
— وماذا صنعتكم به ؟ ...

— لا شيء ... صنعنا له صندوقاً لمسح الأحذية ، وحلقنا له
ذقنه ، وألبسناه جلباباً ... وألحقناه بخدمة المحل ، ينظفه بالنهار ،
ويلبص أحذية الزبائن بالليل ...
— فكرة نيرة جداً ...

قلتها بكل إخلاص ، وكل إعجاب ... ولكن هذا لم يمنعني من
تعمد الانقطاع عن الحانة زمناً آخر ، حتى يلتصق الشيخ عيش
بصفته الجديدة تمام الالتصاق ، وينسى الليلة المحمودة تمام النسيان ،

فلا يلحقني من انقياء متاعب ...

* * *

ومرت أعوام ثلاثة ... دون أن أضع قدمي في تلك الحانة...
لا تعمدأ ، بل طاعة لأمر القدر ... أو قل أمر الحكومة ، فقد
دس لي الحاسدون النمامون لدى رئيسي الجديد « الغشيم » اللثيم ،
وانهموني ظلماً بأني قليل العمل ، كثير الكسل ، مدمن على السكر
والعريضة وارتياح الحانات ... فما راعني ذات صباح إلا أمر من
الوزارة بنقل إلى أقاصي الصعيد ... فكشيت هناك إلى أن أذن
الله والمساهي المثمرة بعودتي ...

فما أن استقرت في الحال في عملي الجديد بالمصلحة ، حتى شعرت
بالحنين إلى حياتي الماضية... ونشطت ذات مساء أقصد هذه الحانة ،
وكنيت قد نسيت الشيخ عفايش وما جرى له بالتمام ... فدخلت
وأجلت النظر في المسكان ، فلم أجد شيئاً على حاله القديم ... كل
شيء قد تغير : مائدتي المختارة ، والغانيات والساقون والبارمان ،
وحق مدير المحل ... لم يبق شيء كما كان سوى اسم الحانة ، فهو
هو دائماً لم يتغير : « بار الفردوس » ! ...

وقفت لحظة حائراً لا أدري أين أجلس ... حتى لمحت غانية
من بنات الهوى ، قد اعتلت البار... وهي بمفردها تدخن ، والدخان

مغم حول وجهها الأبيض المستدير كأنه السحاب حول قر ...
فاتجهت إليها ، ووافقت بجوارها وطلبت لها كأس ولى أخرى ،
وأخذت أغازلها بكلمات محفوظة بما يناسب المقام ... إلى أن قطع
الحديث ماسحاً أحذية ، يهمس قربى : « تسمع يا بك ! ... » فارتجفت
ونظرت إليه ، وتذكرت جفاة الشيخ عليش ... وقلت فى نفسى : ماذا
أنا فاعل لو ظهر الشيخ بصندوقه ، وماذا أنا فائل لو جذب حذائى
ليمسحه ؟ .. أأدفعه إليه ، أم آباه عليه ... ترفقاً به واحتراماً له ؟ ...
ورفعت الغائبة قدحها إلى شفيتها ، وهى تنظر إلى باب الحانة
قائلة لى بقلقى :

— ان أوقف طويلاً معك ... إني أخاف أن يحضر فيرانى ...
إنه شديد الغيرة ! ...

— عمرى تتكلمين ؟ ...

— علوى ... علوى بك ! ...

— علوى بك ! ... من هذا ؟ ...

فظهر على وجهها الاستغراب ، والتفتت تحديقاً فى وجهى
وهى تقول :

— عجباً ! ... ألم نسمع بهذا الاسم ؟ ... كل شارع عماد الدين
يعرف من هو علوى ! ... يظهر انها أول مرة تدخل فيها البارات

والكباريات ...

— حقاً ... منذ أكثر من ثلاثة أعوام ...

— لقد اقترب موعد مجيئه ... أنصحك أن تبعد عني بمجرد
إشارتي لك بالابتعاد .. وإلا فأنا لست مسئولة عن منخارك أر
أذنك إذا أطاح بها حد الموسيقى ...

— يا مغيث ...

فلتها هامساً مرتعداً ... وأنا أنظر إلى الباب ... ثم خطر لي
أن أنتعد بكأسي عن المرأة منذ الساعة ، دون انتظار للمقدر والله
يغنيانا عن قربها المحفوف بالمخاطر ... ولكنني خشيت أن أبدو
على هذا الجبن أمام امرأة ، لعلها ما قصدت إلا العبث بي والمزاح
معى ... وتجلدت قليلاً ، واستأنفت الحديث والمغازلة ... وإذا
هى فجأة تلتفت إلى الباب ، كالقطة الى أحسست بغريزتها حركة ...
ثم أدارت لى ظهرها ، ونأت عني بقدها ... فأدركت أن صاحبها
قد حضر ... ولقد شعرت بالفعل كأن الحانة كلها قد مستها شرارة
كهرباء ... فقد ساد بغتة صمت لدخول ذلك الرجل ، شمل الحاضرين
من زبائن وساتين إلى مدير المحل الجالس فوق المنصة .. فرفعت
عيني بحذر وادب أخص ذلك الذى يسموه « علوى » ... فرأيت
رجلاً أنيق الملبس ، خفيف الشارب ، لامع الشعر ، يتضوع منه

عطر السكاونيا الثمين ... وخاطب الرجل بلمهجة الأمر « البارمان ،
تقبل إلى أنى أعرف هذا الصرت ، واحتلت لأنظر إلى وجهه
ملياً ... فإذا الدهش بعقد لسانى : لم يكن علوى بك هذا غير
الشيخ عlish فى قالب جديد ا ...

ولم أدر ماذا أصنع عندئذ ... هل أحاذئه ؟ ... هل أنسحب
من المكان دون أن أشعره بوجودى ؟ ... وتساءلت : أترضيه
مقابلتى اليوم أم تزججه ؟ ... ليس لى أن أبدأ على أى حال بشىء ...
واسكن الظروف سرعان ما تدخلت ... فقد أراد هو أن يخرج
من جيبه الخلقى علبة السجائر ... فصدمتنى بده على غير انتباه
منه ... فالتفت نحوى ... وتقابلت عينانا فخلق فى وجهى لحظة ،
كمن يراجع ذاكرته ... ثم ما لبث أن انفرجت شفتاه عن صيحة
أذهلت الحاضرين :

— رضوان ا ...

ثم فتح ذراعبيه ، وعانقنى عناقاً طويلاً ... فرحاً كالطفل ،
مبتهجاً كمن لقي لقيه ... وهو يردد : « رضوان ... صديق
رضوان ا ... » ... وقبل أن أفتح فى بحرف ، جسدنى من يدى
وقادنى إلى مائدة فى طرف الحانة كأنما يريد أن ينفرد ويستأثر
بفرحة العثور على " ... وصفق ينادى « الجرسون ، :

— زجاجة شبنانيا ...

— هكذا سرها ١٩ ...

— دعني أرد إليك بعض دينك ! ... أين كنت طول هذا الزمن ؟ .. لقد بحثت عنك في كل مكان ... ولكنك اختفيت فجأة ... ها، إذا أعثر عليك الآن فانركني أرد إليك الحسنة بعشرة أمثالها ! ...

— انت أدري هل تعتبر فعلتي حسنة ١٩ ...

قلتها كالمخاطب لنفسي ، وأنا أجيل بهمري المشدده في كل جزء من أجزاء هذا الكائن الذي كان يسمى فيما مضى الشيخ هليش ... كلا ، إن التغير الذي طرأ عليه لا يمكن أن يسمى تغيرا ولا تطورا ولا انقلاباً .. إنه شيء لم وجد له بعد اسم .. الوجه ووجهه والصوت صوته ، ولكن اللهجة التي بها يتحدث ، والطريقة التي بها يشرب ، والأسلوب الذي به يسمر ، والعقل الذي به يفكر ، والنفس التي بها يشعر .. كل هذه أشياء أراها لأول مرة ... على أن عيني الفاحصة دلتني على شيء عنده سبق أن رأيته ... طرف الموسيقى البارز هذه المرة من جيب الصدر ، خلف منديل الحريري المتهدل ... ولم يدعني أستغرق في دهشتي وتأملي ... فقد رفع كأسه قائلاً :

— فى صحفة رضران ا ...

فرفعت قدحى ا ...

— فى صحفة علوى ا ...

وشرب كأسه كلم فى جرعة واحدة .. ثم التفت إلى قائلاً :

— أرى أن عطاشك الحقيقى هو إلى معرفة شىء عن صديقك

الجديد « علوى » ا ...

— طبعاً ا ...

فأشار إلى ماسح الأحذية الذى يحوس بصندوقه خلال
المكان وقال :

— لقد بدأ هكذا ...

ثم أخذ صوته يخفت كلما أوغل فى الحديث ، كأنما يدلى
باعتراف أو يسعى إلى مخاطبة النفس ... ثلاثة أشهر أو أربعة
حمل فيها صندوق الأحذية وتعلم خلالها المشى والمقامرة والمغامرة
وخدمة الغزاة ... إلى أن تجمع فى يده مبلغ من المال ... فطرح
صندوقه وجلبابه ، واشترى بذلة نظيفة وصار أفنديا ... ولكن
صلته بالغانيات وحاجتهن إلى الحماية جعلتا منه فى نظرهن رجلاً
لا غنى لمنعه ... ولقد تبين له بعد قليل أن هذا عمل مريح ...
فقد كثر عدد المحتاجات إلى يده وحمايته ... وشاع عنه ذلك فى

هذه البيئات ، وشاهد الناس من خوارق براعته في استخدام الموسى ما جعلهم يحسبون لغضبه حساباً ... وامتد نفوذه إلى أكثر البارات والحانات ، بمن فيها من نساء وزبائن وساقين ... فهو الآن يرتاد أغلب أماكن اللهو ، ويطلب ما يريد ، دون أن يجرؤ أحد على الاعتراض أو المطالبة ... بل هو الذى يتقاضى من أصحابها الأتاوات والمرتبات لضمان الهدوء فى هذه المحال ... وهو أحياناً يشتط فى الطلب ، ويركب إلى التهديد وإحداث الشغب فيذعن من يذعن ، ويلجأ البعض إلى بيع حاناتهم هرباً منه وضيقاً ... كما حدث المالك السابق لبار « الفردوس » ... هذا هو علوى ... وهذه حياته ... رواها بلهجة سريعة مقتضبة ...

ثم التفت إلى قائلاً :

— والآن ما رأيك ؟ ...

فألجتنى الحيرة ماذا أقول ؟ ... وكيف أمسه بنقد وهو شارب ، والموسى فى جيبه ... ولكنى أجبتة برفق :

— لقد كنت هبطت الأرض لتواجه الشر فيما أذكر وتنازل الرذيلة ...

— ماذا تقول ؟ ...

— ألا تذكر أنهم أنزلوك إلى الأرض من جديد لتنازل الشر ؟ ...

— من الغريب اننى نسيت ذلك . . . لقد استغرقتنى حياتى
وجرفتنى ، فلم أفطن إلى ما حث . له .
ألم صادف الشر ؟ . ألم تر الرذلة ؟ ...
— أين ؟ ...

قالها كالثأمة أو المحقد فى الظلام . فألقيت نظرة إلى
الزجاجات الثلاث التى أفرغها فى حوفه ، منذ جلوسنا . ثم ألمت
بحاله ، فلم أجد للشراب أثراً فى صوابه . هو ذن صادق فى
إحساسه . لقد حرقه التيار إلى ... ألهام حتى عن سؤال نفسه
« فى أى طريق يسير ، ؟ ... » نالها من حزيمة . . . إنه لم يثبت
للنزاع ، لقد تلاشى الشيخ غلش ، وتلاشت عمامته ومسبحته
بلهسة خفيفة من ظل الرذلة ... لقد مع فى الميدان الراية البيضاء
دون وعى منه ، قبل أن يقطن حتى إلى رحود عدو ومركة ...
وأطرق الرجل طويلاً ثم قال بذلك الصوت الخافت صاعداً
من أعماق نفسه :

— فى يدى المال والسطوة المتعة ولكى مخلوق شقياً
— أبداً ضميرك يعدبك ؟
— ضميرى ؟ أعمره الآن ، . . . أستطيع أن تحدد
الإصغاء إلى ... لأجبرك ...

— نعم ... أخبرني بكل شيء ... إني أحس كأنى مسئول ...

فقاطعنى بتصفيقة قوية ينادى بها الساقى وهو يصبح :

— زجاجة أخرى ...

ولكن مدير المحل أو ما إلى «الجرسون» أن يتغاضى ويتصامم ،
وصفق علوى مرة ثانية وثالثة ... فلم يجد مليباً لندائه ، فأطلق صيحة
مدوية ضج بها المكان ، فحضر إليه مدير المحل يقول :

— علوى بك ! ... ألا تكفى ثلاث زجاجات من الشمبانيا

للفاخرة ؟ ... هذا كثير ! ...

— الكثير أذنالك اللسان لا تسمعان طلبى ... سأريك أن

واحدة منهما تكفيك لسماى ...

وفى مثل لمح البصر ، استل موساه من جيب صدره ... وقذف

مدير المحل ... وكنت لحسن الطالع قد فطنت لقصد صاحبي ،

فخدفت بكل قواى مدير المحل بعيداً عن مرمى النصل ، فنجأ

واستقرت الموسيقى فى خشبة المنصة ... وهاجت الحانة وماجت

ولكن ما من أحد تحرك من مكانه ، فقد كانت لعلوى هبة ...

فتسمر الحاضرون فى مكانهم رهبة أو وهما .. وقام هو يمشى على

مهل بجلال إلى المنصة ، فنزع عنها نصلة البراق وطواه ودسه خلف

منديله ، وأراد أن يعود إلى مجلسه من الخوان ، ولكنى أمسكت

بذراعه وسأله بالخلف أن يخرج معي من الحانة ، لنستأنف حديثنا
في هواء الطريق الطاب ... فأذعن مرغماً لرجائي وخرج معي ...
وهو يهمس بغضب مكتوم :

— لا يستطيع أحد أن يخرجني قهراً من هذا «الفردوس» ...
— قهراً لا ... لقد خرجت بإرادتك ! ...

قلتها له بلمحة التراف والمداواة خشية من بواده ، وتهدة
لثائمه ، ثم سأله ونحن في الشارع سائران أن يعضي في حديثه ،
وأن يخبرني بما كان يزعم إخباري به ... فظفر في ساعة ذميمة
بمعصمه وقال :

— لا أستطيع الآن ... غداً إذا شئت ... وموعداً في عين.
هذا المكان ...

— حين هذا البار ١٤ ... أو هذا ممكن بعد الذي - صل ؟ ...
— ماذا ؟ ... هذا يحصل كل يوم ! ...

* * *

لم أتمكن من مقابلته في الموعد المحدد.. فقد دعيت إلى عرس
أحد أقربائي في الريف ... فسافرت ولبثت هناك بضعة أيام ،
رأيت فيها العجب : ضريح الشيخ عليش أصبح كعبة يهج إليها مئات
الناس من القرى المجاورة ، يحملون إليه الشموع أيام الأسواق

«يوفون بالنور... وينوهون بكراماته العديدة في إراء الأمراض
وقضاء الحاجات ...

ولقد أبصرت امرأة ترفع طفلها العليل بيديها ليلبس شبك
الضريح ، ويتلقى من مس حديد البركة ، وهي تصيح من أعماق
قلبها :

— يا شيخ عlish ! ... يا ولي الله يا ساكن الفردوس ! ...

نظرة ... مدد ... نظرة ... مدد ! ...

ولقد سمعت رجلا يهز باب الضريح صائحاً :

— يا شيخ عlish ! ... يا حليق الرأس ... خذ يدي ، واسف

ووجع راسي ! ...

أبصرت ذلك وسمعته كثيراً من أفواه كثيرة ... وقلت في
نفسي : منذ استطيع أن يقول في هذه الجموع المؤمنة الآملة أن
الشيخ عlish لا يوجد إلا في بار «الفردوس» بشارع عماد الدين ،
وأن من يدعونه ولي الله حليق الرأس ليس سوى «باطلي» ، يخلق
الآن الأنوف والآذان بموساه من رؤوس الناس !! ...

لوقلت لهم هذا القول لرجهوني بالحجارة ، وصاحوا بي : اقتلوا
الكافر ! ... اهلكوا الكافر ! ...

على أن العجيب في الأمر أن كثيراً من هؤلاء المرضى الذين

يزودون الضريح يشفون حقاً ... ولقد أكد لي ذلك بعض من
يوثق بقولهم من جملة أقربائي في الريف ...
ولقد فكرت في ذلك قليلاً ، فزال عني العجب : يا لهؤلاء
الناس ! ... انهم هم الذين يشفون أنفسهم بأنفسهم وهم لا يعلمون ...
إن الناس لا تريد أبداً أن تصدق القوة الخفية الكامنة في أعماقهم ...
ولا بد أن يخترع لهم وهمهم قوة خارجية ينسبون إليها ما يابون
هم من معجزات ! ...

وتخيات حال الشيخ عlish - أو علوى بك - لو أخبرته بأمر
هذا الكرامات التي تفيض على الجوع من نوافذ ضريحه ... بينما
هو غارق في غمور البارات والحانات ... ولست أرى أن أمسك
عن أخباره وأن ألزم الصمت المطبق ، رحمة بجيوب العباد . . .
فإنه لو علم ، لحضر إلى الريف واستغل هذا المنجم الذي لا ينضب ...
وحسبي ما انترفته من أثم ما زال يوقر ضميري ، إذ دفعته إلى
طريق الموبة أول ليلة ... فلا ينبغي أن أدفعه إلى طريق أثم
جديد ... فليبق اسمه منبع رحمة للناس وليذهب جسمه إلى الجحيم ...
عدت إلى القاهرة ... وذهبت في المساء إلى حانة الفردوس ،
فتلقاني مدير المحل بالترحيب ، وشكر لي موقفي وتدخل في تلك
الليلة التي حاج فيها علوى وقذفه بالموسى ... وقال لي أنه كان ينوي

أن يخبر البوليس ، وأن يجازف ويتعرض لانتقام علوى ... فهو يعلم أنه لن يتركه في هدوء إذا هو بلغ عنه ... فهو له أعوان . . . وأنه سيتعقبه بالويل ولو بعد أعوام من سجنه . . . لو سجن . . . ولكنه أثر ضبط النفس ، والتغاضى عن الحادث ... لأنه يعرف علوى منذ زمن ، ويعلم أنه سريع الغضب سريع الصفاء ... والخير في استئناف الصلات الودية مع مثله ... غير أنه يلاحظ عليه في الأسابيع الأخيرة تغيراً غريباً . . . وليس هو وحده الذى رأى ذلك منه .. غايات الحانة على الخصوص وهن أدق احساساً بما يشغل نفسه في هذه الأيام ... ولقد سألته : أحادث علوى بعد تلك الليلة ؟ ... فأخبرنى وهو دهش أن علوى لم يحضر إلى الحانة منذ خروجه معى تلك الليلة ! . . .

وعبثاً حاولت بعد ذلك العثور على علوى . . . بحثت عنه في جميع البارات والكباريات ...

وأخيراً قال لى أحد خدام « البار » أنه لمح ذات مرة شخصاً يشبهه جالساً أمام مقهى وصفه لى فى حى السيدة زينب ... فذهبت إلى ذلك المقهى ... فإذا بى أجد علوى قاعداً بمفرده ، يتأمل شيئاً لا أتبينه فدوت منه ، ولكنه لم يفتن إلى حتى وضعت يدى على كتفه ... فأفاق فى شبه رعدة ونظر إلى وقال :

— أنت ؟ ... ماذا أتى بك إلى هنا ؟ ...

— وأنت ... ما الذى أتى بك إلى هنا ؟ ...

— اجلس ...

قالها وهو يهيم لي كرسيًا بجواره ، ونادى « الجرسون ،
وطلب لي فنجانًا من القهوة ... وأطرق طويلا ، ثم رفع رأسه
وقال بصوت كالممس :

— يجب أن أخبرك ...

— نكل ما يقوم في نفسك ! ...

— نعم ... لن أخفي عنك شيئاً عما في نفسي ... إننى أحب ...
وعندما ألفظ أنا هذه الكلمة ، فأعلم أن أمراً عظيماً قد وقع ...
فأنا من أكثر الناس صلة ومعرفة بالنساء ، ومن أكثر الرجال
متعة وامتيلاكا للحسان والغانيات والجميلات ... ولسكن الذى
حدث لي قلب كيانى وأثبت في قلبي « شاعر أحسها لأول مرة ...
هى فتاة لو رأيته لعجبت كيف أن مثلها يمكن أن يوحى بالحب ...
على الأخص إلى رجل مثلى ... ، نحيلة ضئيلة يضرب لونها إلى
الصفرة ، لا تضع الطلاء ، ولا تعرف الإغراء ولا تلبس غير
البسيط الضرورى من الثياب ... هى معلية فى مدرسة ابتدائية
للبنات فى هذا الحى ... تسألنى : كيف عرفتها ؟ ... أقول لك :

المصادفة... كانت في دار من دور السينما مع بعض تلميذاتها يشاهدن رواية ملونة بالرسوم المتحركة... فلما انتهت الحلقة وخرجت بأطفالها تعرضَ لها شاب ثقيل بمغازلة سمجة ، فلم تعرف كيف تحمي نفسها منه ، فندخلت وألقذتها ، وأوصلنها إلى مدرستها مصونة موقرة مع تلميذاتها... فشكرت لى ذلك بصوت لن أنساء... صوت أُنثَرَّ في نفسى كما تؤثر أحيانا قطرات الندى في قطعة الصخر... صوت لم أسمع من قبل نبرة حنانه ورقته ووداعته حتى ولا بين ملائكة السماء!... منذ تلك اللحظة شعرت أنى محتاج إلى هذا الصوت ، كما تحتاج الصحراء إلى ماء المطر... فمكنت أجيء في كل يوم أقرب موعد خروجها ودخولها المدرسة... لأقابلها وأقربها السلام ، زاعما لها أنى من سكان الحى ، وأنصرف عنها وقد ملأ صوتها قلبى... فأعيش على هذا الغذاء ساعات حتى أحس الحاجة إلى صرتها من جديد... هذا كل عملى الآن... انهما كل شغلى الشاغل... بل هى النور الذى أضاء جوانب نفسى وجعلنى أتحمس دهايلزها المعتمدة وأعرف ما فيها من خير وشر ، وفضيلة ورذيلة ، وكنوز وثعابين ، آه... ليس الفردوس هناك فى السماء... وليس هنا فى شارع عماد الدين... انه هنا فى القلب... وربما كان فيه الجحيم

أيضاً ! ... لقد عشت أياماً على أمل الزواج منها ... لأنى بغير هذا المصباح لا أرى شيئاً ، ولا أميز شيئاً ... ولا أفرق حتى بين الحسنة والسيئة ، ولكن دون هذا الأمل هوة أوسع من فوهة جهنم ! ... لقد تمكنت من إطالة حديثي معها ... فعلت أنها مخطوبة لابن عم لها مدرس هو الآخر فى مدرسة ثانوية ... ولقد تبينت من حديثها وتفكيرها أعضاء من الحياة النظيفة والعواطف النبيلة والأهداف السامية ... كل همها فى الدنيا إخراج نماذج من البشرية الراقية ... وهى تتحدث عن خطيبها كعاون لها فى مهمتها الإنسانية لقد كنت أحس الضالة والحقارة وأنا بجوارها أستمع إليها ، كأنى ذبابة قدرة دائية من شراب مطهر أو دمه قدس ! ... ماذا ينبغى أن أفعل بعد ذلك ؟ ... أمامى طريقان ... إما الهجوم والعمل على الظفر بها بأى ثمن ، وقد أنجح ... فهى لا ترتاب فى أمرى ، وتجهل كل شىء عنى ، وقد لمحت من حديثها بعض الاطمئنان إلى والثقة بى ، وليس من العسير أن أُنمى ذلك فيها إلى حد العطف والميل وربما ... الحب .. وإما أن أنقذها منى ، وأتركها لطريقها المستقيم ، وخطيبها الممذّب ، وحياتها النقيفة وهدفها السامى ... إذا دخلت حياتها فقد حطمتها وهدمتها .. فما أنا لها إلا نقمة ! ... وما ذنب هذه الطاهرة

الماضى الباسمة المستقبل ، أن تكتشف ذات صباح وهى بين أترابها
وزميلاتها وتلميذاتها ورئيساتها أنها ما تزوجت غير « بلطاجى » ...
صناعته الكسب من أتاوات الغانيات والكباريات ... وإذا تركتها ...
ولم تدخل هى حياتى فقد حطمتنى وهدمتنى ... ماذا أصنع ؟ ... إلى
لبنى حيرة ... وإلى لأرتنى كل يوم فى هذا المقهى ، بعد مقابلتها ،
لأفتح فى نفسى ميدان صراع : هل أقدم ؟ ... هل أحجم ؟ ...
وأطرق غارقاً فى صمت طويل ... ولم أشأ أنا قطع هذا
الصمت ... فسكت ، وجعلت أداعب بأصابعى أذن فنجان
القهوة ... إلى أن رفع رأسه مردداً :
— هل أقدم ؟ ... هل أحجم ؟ ...
فاكتفيت بأن قلت له :
— تلك هى المعركة الكبرى بين الخير والشر ... وعليك
الآن أن تخوضها ! ...

* * *

مرت الأيام بعد ذلك دون أن أرى علوى ، فقد اختفى من كل
مكان .. وإذا بى ألتقى خطاباً من أقاصى الصعيد ، بامضاء « الشيخ
عليوه » ، يخبرنى فيه أنه افتتح كتاباً من السكتاتيب فى تلك المنطقة
النائية التى كان يرد ذكرها على لسانى فى أحاديثى مع « علوى » ، فى

ليالى السمر بالبار... وانه قد انقطع لتربية النشء من أبناء الفلاحين ،
وتبصيرهم بالفرق بين الخير والشر والفضيلة والرذيلة... وأن الموسى
عادت إلى حلق شعر رأسه زهداً... والعمامة والمسبحة ظهرتا لخدمة
التقوى البصيرة ، والورع الحقيقى مع العمل المفيد والسكوح المجدى ،
وأن المصباح الذى أضاء قلبه يجب أن يظل مرتفعاً عن الدنس ...
ولقد تركه لمصيره الطاهر معاهداً نفسه أن يحذو حذوه ، وأن ينهج
سيرته... وأنه يكفيه منه شعاع ينير له على البعد كالنجم السحيق ...
وكانت تلك نهاية المعركة ...

* * *

وختم صاحبي المرح قصته فائلاً :

— والآن هاأتذا قد سمعت قصة ذلك الرجل الذى كان
يسمى : الشيخ عايش ، وعلوى بك ، والشيخ عليوه . . . فما
حكمك عليه ؟ ...

فقلت له وأنا أرشف قهوتى بعد العشاء الشهى الذى قدمه إلى :
— فلنترك الحكم عليه لملائكة السماء ... فإنه سيصدر إليهم هذه
المرة بملف زاخر ، سيقضيههم فرزاً دقيقاً وحساباً طويلاً . . .
قبل أن يصدروا حكمهم بقوله النهائى أو طرده الدائم
من الفردوس . . .

لا كرامة لنبي في وطنه

كانوا في القرية يطلقون عليه اسم « زنجير » .. ولست أدري
أكان لهذا الاسم صلة بمنظره ؟ ... لقد كان أسود اللون ، قبيح
الصورة ، مخروم الأذن ... يرتدى معطفاً عسكرياً ، نحاسي الأزرار ،
من بقايا الحرب العالمية الأولى ، قد رث عليه وبلى وضاعت أزراره .
إلا واحداً ربطه بخيط من قيل ، وهو يحمل في يده هراوة كانت
فرعاً من شجرة السنط ، التي تظل « الكباس » ، القبلية ... يرفعها ويجري
بها وراء الساخرين به والضاحكين منه ... وما أكثرهم ! ... ما من
أحد كان يأخذه على سبيل الجد ... وما كان هو يحفل بأراء الناس
فيه ... كان يكفيه دائماً رأيه هو في نفسه ... كان له أخوة يصغرونه .
سنا تزوجوا واستقروا وانتجوا ذرية تسعى معهم إلى الغيظان .
وتعود منها بعد الغروب مسكة بزمام البهائم المحملة بعليقها من
الحشائش وأعواد الذرة ... أما هو فكانت فكرة الزواج تثير
بالنسبة إليه ضحك القرية وهذرها وعبثها ... من هي تلك التي
ترضى أن تزوج من « زنجير » ؟ ...

وكان هذا هو السؤال الذي اعتدت أن ألقيه عليه ، منذ
أعوام طويلة ، كلما ذهبت إلى الريف :

— هل تزوجت يا زنجير ؟ ...

— أبداً ...

كان يقولها في شيء من المرارة والثورة ... فسكنت ألاحقه :

— وما السبب ؟ ...

— ما فيش فلوس ! ...

هذا كان تعليمه الوحيد ... ورأيت أخيراً أن أبطل هذه الحجة ،
فعرضت عليه أن أقوم عنه بكل نفقات عرسه من مهر وفرح
وثياب الخ ... لو ظفر هو بالعروس ... فسر لذلك وحمد وشكر ،
ولكن الأيام مرت ولا نتيجة لهذا ولا أثر ... ولم أعلم ما حدث ...
ولكني صرت بعد ذلك كلما مشيت بين الحقول وإلى جانبي
« زنجير » أتأمل من أجلي كل فلاحه تيمس بقدها تحت ثقل الجرة ،
كما تيمس العود تحت ثقل السنبلة ... فأسائلها :

— يا بنت ... أتتزوجين الولد « زنجير » ؟ ...

فما أسمع إلا دقة على صدرها وصيحة :

— يا خيتي ! ...

وتشتد في السير مجفلة هاربة حتى تختفي ... وإذا « زنجير »

يجوارى يشيعها وهو مجروح ساخط مغتاظ :

— داهية لا ترجعك ... وأما كنت أرضي ؟ ...

ثم يأخذ في إقناعي بأن كل هؤلاء الفتيات دون ما يستحق ،
ودون ما يريد ، ويأخذ بعد ذلك في حمد الله إذ ضرب على أبصارهن ،
فهذا الرفض منهن نعمة ... ولكني لا أقنع ، وأظل أطرح
السؤال على طوائف مختلفة من بنات القرية ... وأهبط في سلم
الجمال درجات ، وأطأ طء الرأس نياحة عنه وأقبل تضحيات ، حتى
وصلنا إلى درك لا نزول بعده ... فكل مشروبات القرية ، من
الخنفاء والعرجاء والحدياء ، عرضت أمره عليهن ... فما سمعت
قط غير تلك الصيحة المنكرة من الأفواه ، وذلك الدق المستنكر
على الصدور ... وتلك العبارة الواحدة من كل الشفاه :
— ضاقت علينا الدنيا ... ما بقي غير « زنجير » ١٩ ...

* * *

وصدئت وآمنت أخيراً بصعوبة زواجه ... فهذا رجل تنشأ
في القرية أضحوكة ، وشبت فتيات القرية لا يبصرن منه ولا يعرفن
عنه إلا أنه رمز السخرية ، ومناط العبث ومثار الهذر .. لقد كان
في مجرد تقدمه إلى أسرة من القرية سوء أدب منه في نظرها ،
وتعد منه على كرامتها ، وخدش لسمعها ... إذ استقل شأها نخفها
دون أهل البلد بهذه المهانة وقلة التقدير ... هكذا كانت الأسرة
تدفعه عنها كما تدفع الفضيحة ... وبلغ الحال من سوء أن أصبح

«زنجير» شخصية تغيط بها البنات المذنبة إذا أردت لها تأديباً .. ولم يشذ عن استخدام هذه «الأداة» التأديبية أحد حتى أنا ... فقد انتهى بي الأمر أن آمنت بما يؤمن به الجميع في القرية ... وصرت إذا أردت أن أشتم بنتاً مهملة من بنات الخدمة في البيت أو الحقل أكتفي بقولي :

— والله يا بنت لأزوجك من «زنجير» ! ...

فتطفر دموع الخوف والغمزاة من عينيها في الحال ... وأدرك أني قد رفعت عليها بهذه الجملة سوطاً يقيم عوجها ويصلح فاسدها ... كل هذا و «زنجير» في ملكوت من نفسه ، وعالم من رأيه ، وحصن من «حالة معنوية» عجيبية ... مرتفع فوق لجج الاستهزاء العام ، لا تعصف برأسه أنواء ، ولا يصل إلى عينيه رذاذ ولا ماء ... لطالما ساءلت نفسي في أمره : أهو جمود؟ ... أم هي بِلادة شعور؟ ... أم هي صلابة شخصية وقوة إيمان ؟ ...

أردت أن أتندر به ذات يوم ، فقلت له :

— ومن التي ترضى أن تتخذها زوجة لك من بين بنات القرية؟ ، فقال بلا تردد :

— البنات «سلطانة» ...

يا للعجب ! ... «سلطانة» هذه هي أجمل بنات القرية طراً ...

هى الزرقاء العينين، العسجدية الشعر... التى يخشى التقدم إليها أجمل فتيان
القرية وأقوامهم... هى التى يتنافس فيها المتنافسون، ويتزاحم المتزاحمون،
من بين من فرزت مؤهلاته وبرزت صفاته... فما تمالكك أن صحت به :
— طيب اسكت ... اسكت ...

مرت الأيام ... وعدت مرة أخرى إلى الريف بعد غيبة عنه
طويلة ... فراعنى ما أجد ، وأذهلنى ما أرى ...
زنجر قد تزوج ...

تزوج بمن ؟ ...

بفتاة أجمل من سلطانة ! ...

وعلم زنجر بحضورى ، فجاءنى وكأنه يقول : « هذه المرة
تستطيع أن تسألنى السؤال المعبود، ... ولكنى كنت علمت الجواب
من قبل... فاكتميت بأن أقرأ على وجهه سطور انتصاره... بل لقد
قرأت ذلك على وجوه أهل القرية أجمعين... لم يعد «زنجر» فى نظرهم
ذلك «الأخوكة»... ان الاسم لم يزل لاصقاً به... ولكن قد غسل
عنه كل معنى من معانى الهزء والسخرية ...

كيف حدثت المعجزة ؟ ... لم يخبرنى هو... ولكن الذى قص
على شيخ وقور من شيوخ القرية ، قال :

— حدث منذ ثلاثة أشهر أن حضرت إلى القرية « ترحيلة ،

« لنقارة » الدودة من زراعة القطن وكان يعمل فيها بنات كثيرات من قرى بعيدة . فيهن جميلات وفهن رشيقات ... وكان زنجير هو « الخولي » عليهن . فإذا هو يلبس من يدين فتاة هي أسطعهن جمالا وأوفرهن سحرا وأكثرهن فتنة ... بل هي حسن لم نر له مثيلا في قريتنا ... فلزمها في العمل ، وتودد إليها ... وخفف عنها ... وكان لا يأمرها إلا بعروف ولا يعاملها إلا برفق ولا يحادثها إلا بلطف ... وتفتحت نفسه لها ببضاه جميلة كما تفتح زهرة القطن ... وكانت الفتاة طيبة القلب ، فأبصرته « بعين » قلبها ولم تبصره بعين أذننها ... رأت « الانسان » ولم تر فيه « الأضحوكة » ... فهي من قرية بعيدة لا نعلم عنه شيئا ... فلم يغم يدينها وسد قديم من تلك الشخصية المبينة بلبنات الضحكات ، في بلده ، على مدى الأعوام ... لقد بادته لطفاً بلطف ، وعند ما قال لها ما زحاذات يوم : « تزوجيني » ... لم يرعه إلا قولها : « لا نعم » ... فقال لها :

— صحيح ؟ ...

فقالت :

صحيح ! ...

— تحلفي على المصحف ؟ ...

— أحلف ...

وأقسمت أنها جادة . وأنها لا تطمع في زوج خير منه ، فطار

زنجر فرحاً إلى أهله يزف إليهم الخبر... ولم يصدق أهله هذا الكلام إلا بعد أن سمعوا قبول الفتاة بأذانهم... فارتفعت الزغاريد، في القرية... ودفع زنجر المهر لأم العروس، فأبوها قد توفى وتزوجت أمها بغيره... وجاءها بحلق ودغوايش، فضة وخلخال ومرتبته ولحاف ومسندين ومختين، وحلة وطشت وفناجين قهوة، وبراد شاي وصينية وأربع ملاعق وأربعة أطباق... الخ الخ... ثم أعدت العدة ليوم الفرح فأحضروا الجمل وطفق زنجر مع أخوته يزبنونه بسعف النخيل والبوص والجريد والشال الأحمر... وأنموا صنع المودج الذي سيحضرون فيه العروس الفاتنة من بلدها... كل ذلك بين غناء أهل زنجر وغبطنهم بفوز هذا المظلوم... وبين نظرات الدهشة والحسرة والندم من بنات القرية اللاتي سخرن من زنجر، فأظفروا الله بمن لا يصلن إلى كعبها ملاحه وطهارة ودمائة...

أصغيت إلى كل هذا... وعلبت سر المعجزة... لقد جاءه الخير والتقدير ورد الاعتبار من قرية أخرى بعيدة... هكذا أنصفه الله... بالطريقة التي أنصف بها من رضى عنهم من الرسل والأنبياء...

الدنيا رواية

الدنيا رواية حقا في نظر أولئك الذين يؤمنون بنظرية حلول الروح ... تلك النظرية التي تزعم أن عدد الأرواح في الكون محدود ، كما أن عدد الممثلين في المسرح محدود ... وأن الذي يتغير هو الأدوار التي يتقمصها أولئك الممثلون ... وهي أدوار لاحداها ولا نهاية ، في تلك الرواية الاستعراضية العظمى ...

إذا سائرنا أصحاب هذا الزعم في زعمهم ، فإن الصورة التي يمكن رسمها للدنيا تبدو جديرة بالتأمل ... ومن السهل تخيل الأرواح في ظهورها واختفائها فوق مسرح الدنيا ، على الوجه الذي يحدث بالضبط في المسارح التمثيلية ... فهناك ، مثلا ، بعيداً عن هذه الأرض وشمسها وقمرها ، مكان خفي ، يمكن أن نتصور فيه ملاكاً يقوم بوظيفة « الريجيسير » - أى مدير المسرح - يعطى الإشارة للشمس والقمر ، فتسلط الأولى أشعتها الذهبية القوية ، والآخر أشعته الشاحبة الفضية على سطح الأرض ... كما تسلط مصابيح « البروجكتور » الكهروباية على خشبة دار النثيل ... ولا بأس من أن نتخيل ذلك « الملاك » في مكانه هذا يباشر أعماله اليومية ، وينظر في « اللوح » الذى أمامه ، المسطورة فيه الأدوار والأقدار ..

ويستعرض ألوف الأرواح المهيأة للظهور على مسرح الدنيا ،
ويستقبل الألوف من الأرواح الخارجة منه ... ولاضير أيضاً
فى أن تطلق الخيال أبعد من ذلك ، لينسج لنا قصة روح من بين
تلك الأرواح العائدة ...

* * *

ظهر الروح الذى زوى قصته ، خارجاً من الدنيا وهو مدهوش
هذهول ، كمن أفاق فجأة من نوم عميق ، وهو يردد هذه العبارة :
— يقولون إنى مت ا... أنا الآن ميت حقيقة ا؟... زوجتى
التي تتحطم تفجعاً ، تصبح بأنى أمرت ، وأنى مت . . . أخبرونى
أيها السادة ... هل أنا حقاً ميت ا؟

ولم يلتفت إليه الملاك ، المنهمك فى أعماله ، الشاخص ببصره
إلى اللوح الذى أمامه ، والسجل الذى بين يديه ، واكتفى بأن
هز رأسه وقال كالمخاطب لنفسه :

— كلكم هكذا ... لا تريدون أن تصدقوا أنكم متم ... ماذا
أصنع لكم ؟... أنا ... ليس لدى وقت أنفقه فى إقناعكم وإقامة
الأدلة والبراهير لحضراتكم ... تقدم يا ... ماذا كان دورك
فى الدنيا هذه المرة ؟...

— كنت طبيباً ... وكانت لى زوجة ... آه ... إن زوجتى

هى التى تموت الآن ولا شك حزنًا علىّ أنا ... يا الله كمينة ! ...
ونسى ذلك الطبيب - أوروحة - كل ما حوله ، وراح يذكر
كل دقيقة من دقائق حياته التى يؤكدون له أنها انتهت ... كان
طبيباً جراحاً ، تخرج فى كلية الطب متفوّناً ، وكل شيء يبتسم له ، لقد
كان من أولئك القلائل الذين ينالون دائماً ما يريدون ، كان حسن
المنظر لطيف المعشر ، يظفر بنظرات كل مريضة وطالبة ، لكنه كان
يعتقد أن هناك امرأة واحدة لا بد أن تستحوذ على كل قلبه وفكره
وجسمه ، ولا بد لها أن تأتى يوماً ، إنه أرادها ولا بد له أن ينالها
فالقدر قد عوده أن يذيله كل ما يمتنى ، فالنجاح فى مهنته تمناه
ففاض به ، وقد تمى المال والترفت ، فجاءه المال من عمله ومن ميراث
عائلى ... وهو بعد ذلك يمتنى أن يلقى الزوجة التى يعطيها حياته
وكده وكسبه ... فوجدها ذات يوم فى صورة مريضة ، أتت
ليجرى لها عملية استئصال الزائدة الدودية ، ما إن وقع بصره
عليها حتى اضطرب ... أترى الأرواح تتلاقى حقاً ؟ ... كيف
تلاقت روحهما من النظرة الأولى ؟ ! ... وكان من المستحيل عليه
أن يتصور أنه هو الذى يجرى لها الجراحة بيده ، ويشق جسدها
بمديته ... إن قلبه لن يحتمل ذلك ... واعتذر لها ولأهلها بشتى
الحجج ، وعهد بأمرها إلى جراح آخر قال إنه أمر منه ... ولم

تدرك هي معنى ذلك الاعتذار إلا يوم فاتحها قائلاً : ولقد خلقت لأكون زوجك لأجراحك،... وكانت هذه الزوجة كل شيء في حياته ... وكان هو كل شيء في حياتها ... ما من كائنين اتفقا والتصقا وأصبحا كائناً واحداً مثل هذين الزوجين ... كانت زوجته تقول له يوم ترى جرحاً في أصبعه : « يا للعجب ! ... كان الألم في أصبعي أنا ... أهو وهم ، أهو حقيقة ؟ ... كيف ينتقل الوجع المسمى من أصبعك إلى أصبعي هكذا أيها العزيز ؟ ... » ، وكان هو يقول لها : « العجب حقاً هو أن كلامك هذا هو عين ما عندي ... لقد شعرت فعلاً يوم جئتني لأشق جسدك ، كأن المشرط سيشق جسدي أنا ، وأنا بالطبع باعتباري جراحك ان أعطى مثلك البنج ، فتصوري جراحة تجرى لي بغير بنج ، بينما أنت المريضة لا تحسین الألم ! ... » وعاش هذان الزوجان السعيدان أعواماً كلها هناء ... ولم ينجبا أولاداً ... ولم يحل ذلك دون تعلق أحدهما بالآخر ... بل لقد كرها الأطفال حتى لا يسبعا لغيمة أسف أن تخيم على جبهما ... انهما هكذا ناعمان أحدهما يكمل الآخر ... ولا حاجة لهما بثالث ... وجاء اليوم المشؤم ... فقد نهض على عادته في الصباح المبكر لإجراء عملية جراحية ، ولكن زوجته أحسست في ذلك اليوم خطراً . . . وتنبأت بكارثة ، كما تنبأ آلة

الرصد بكسوف الشمس ... فتوسلت إليه أن يبقى معها ذلك
النهار ... فأبى التقصير في واجبه ... إن مرضاه في انتظاره ...
فادعت المرض ... فلاطمها ، وداعها حتى كشف بظروف عن
تحايلها ، وقبلها قبلة طويلة ، وانفلت من بين ذراعيها المتشبثتين
بعنقه ... وتركها جامدة كالتمثال . . . وفي الظلم عاد وفي جسمه
السم ... فقد شرط قفازه أثناء الجراحة ، وسرى الداء في دمه من
أصبع مجروحة ، واجتمع حول فراشه أساتذة الطب وأساطين
العلم لينقذوه من الموت ... ومن خلفهم زوجته تموت وتحيا مع
كل نفس من أنفاس قرينها الحبيب ... ولكن ... كان الموعد
محدداً لانتهاؤ دوره في الحياة عند هذا الموقف ... وكان على الروح
في ذلك الوقت أن يخلع الجسد كما يخلع الممثل ثيابه الثقيل ...
وعندما كان يسلم النفس الأخير ، بين شهقات امرأته المسكينة ،
وبريق دمها المنساب ، ووقفها المترنحة المتجلدة ، وابتسامتها
المموهة الدامية ، خيل إليه أنه يرى الحقيقة تضطرب في
الظلام خلف عتبة الحياة .. نعم ... الحقيقة هي أن الحياة ليست
حقيقة ... كان احساسه احساس ذلك الممثل الذي عاش دوره ،
ونسى أمره ، وأبكى الحاضرين وبكى هو نفسه ، إلى أن فرغ من
الموقف الأخير ، وشعر بنزول الستار ، فالتفت ، فإذا عينه الملح

فى الظلام «السكواليس» بما فيه ومن فيه ، فسكن نأثره ، ورفع يده
ليمسح دمه ، قبل أن يدلف إلى داخل المسرح فيسخر منه
زملاؤه ويسخر هو من نفسه .. ولكن عبرات المشاهدين كانت
ترده إليهم وإلى التعلق بهم وبدوره .. فالدواعف فى ذاتها
حقيقة ... كذلك الطبيب المختصر ... خطر له أن يبسم لزوجته
الثكلى ، وأن يهمس لها أن الأمر زيف فى زيف ، ولكن ...
كيف يكون كل هذا الحب زيفاً ؟ ... مهما يكن ما بعد الحياة ،
وما بعد التمثيل فإن الدموع فى ذاتها جديرة بالاحترام ، والحب
فى ذاته أجل من أن يهزأ به ، إن الحب حقيقة ، وإن ما يربطه
بزوجته لا يمكن أن يخلع مع رداء التمثيل ، ولو اجتمعت عليه
كل ملائكة السماء .. وهكذا ترك الميت خشية «الأرض» وخاع
رداء جسده ، ودخل على «الملاك» المدير ، روحاً عارياً مجرداً ...
ولم يحس بعد فرفراً كبيراً بين ما كان منذ لحظة وما يكون الآن ...
أين هو ذلك الموت الذى يقولون عنه ؟ ... ما الذى تغير فيه ؟ ...
ها هو ذا يحب زوجته حباً جنونياً ... وكل أمله أن يلقاها ...
ولكنه لا يستطيع ... لأنه ميت ، كما يقولون ... إذ يراها ،
ويرى جزعها ، ويريد أن يمد يده إليها ، وأن يحادثها بهون
عليها .. ولكن صوته لا يبلغها ، ويده لا تطيع إرادته ... ما من

أعضاء مادية تأتمر الساعة بأمره ... كأنها أشياء منفصلة عنه ... لا يملك تحريكها ، حاله الآن كحالهما عندما كان ينتابه في الدنيا كابوس فيريد وهو في فراشه أن يتحرك ، ولكن إرادته لا تطاع ... إنه الآن إرادة مطلقة في الهواء لا تسيطر على أجسام ، ووعى مطلق في الفضاء لا يؤثر في أشخاص ، عدا ذلك فهو هو لم يتغير فمن يدر به أن هذا موت ؟ ... لعله نوم عميق أو حلم عابر أو كابوس مؤقت ... !

والتفت مرة أخرى إلى الملاك المنمك في أعماله وقال له :
— أنا لا أحس أني ميت ...

فنظر إليه الملاك ، نظرة شرراء وقال :
— أنت حر ...

— أريد أن أعود إلى زوجتي ...

— قل هذا لعزرائيل من فضلك ...

— عزرائيل ... أنموح ؟؟ ...

فلم يتمالك الملاك ، وقال نافذ الصبر :

— ليس عندي وقت للمزاح يا سيدي ... آه ، لو درى

عزرائيل ... ذلك الذي لا تبطل له شكوى من كثرة أعماله ،

لمجرد قبضه عدة أرواح كل يوم ، ينفض بعدها يديه ويستريح ...

أما أنا فيجب على أن أقاسى من أرواحه وأتحمل حماقاتها ، وأصنى إلى ثرثرتها .. يا حضرة الفاضل ... ألم يقبضك عزرائيل ؟ ... كيف تريد إذن منى أن أعيدك إلى زوجتك ؟ ... وإذا كان كل روح يقبضها زميلي أعيدها أنا ، فما الفائدة إذن من قبض الأرواح ١٩ ...

— أنا شخصياً لا أرى فائدة ... لقد كنت مع زوجتى فى أتم هناء ... فلماذا تتدخلون أتم لتفترقوا بين المحبين ١٩ ...

— لا نستطيع يا سيدى الفاضل أن نتركك فى هذا الدور ، أعنى فى هذا الجسد كما تحب أنت وتشاء ، لأن روحك تلزمنا فى عمل آخر ...

— عمل آخر ؟ ...

— طبعاً ... لا بد لك من جسد آخر تحمل فيه ، ودور آخر تقوم به ... وهل تفل أن هذا كان أول أدوارك أو آخرها ؟ ... لقد سبق لك أن حملت فى مئات الأجساد ، وقت بمئات الأدوار ... — أنا ؟ ... أنا سبق لى أن كنت شيئاً آخر غير زوج يحب زوجته ، وطبيب جراح فى ...

فابتسم «الملاك» ابتسامة الساخر المتبرم ، الرائى لجهل محدثه ... وأخذ يقلب فى صمت صفحات سجله الضخم ، إلى أن وقف على صفحة ، نظر فيها لحظة ثم قال :

— اسمع يا سيدى ... قبل أن تكبرن زوجا وطيباً ، كنت
لصاً سكيراً ، فتك براقة فى ملهى ليسرق حليها ... ومات على
المشقة ...

— أنا ؟ ...

— انتظر .. ثم كنت قبل ذلك جندياً بسيطاً قتل فى معركة ..
ثم كنت طفلاً مات بالدفتريا ، ثم كنت امرأة ماتت فى الوضع ..
ثم كنت رجل دين مات بالشيخوخة ، ثم أميراً مات مسموماً ...
ثم كنت ساحراً هندياً لدغته أفعى ، ثم كنت فتاة انتحرت فى
حادثة غرامية ...

— كفى ... كفى ... إني لست مجنوناً لأصدق هذا الهراء ...
أنا طبيب جراح ... ولى زوجة أحبها ، وإذا لم ألحق بها فهمى
لأبد لاحقة بي ... وإن أصدق أبداً أنى كنت أمثل دوراً ...
فنظر إليه ، الملاك ، بابتسامته الهازئة وقال :

— كل مرة تقولون لى عين هذا الكلام ، أنت وغيرك ...
إنكم لا تصدقون أن هذا كان تمثيلاً ...

— تمثيلاً ؟ ... حبها لى وحبي لها .. وحياتنا معاً التى لا تتصور
حياة غيرها ... لا ... لا ...

— إنك لم تول واقعاً تحت تأثير دورك ... إلى أن تذهب إلى

البحر ، فتمغسل ذلك الطلاء ، وتزيل ذلك ، المسكياج ، عندئذ فقط
تكون على استعداد لارتداء الدور الجديد ...
وأشار الملاك ، إلى أحد مساعديه العديدين ، إشارة ذات
معنى ، فتقدم ليقود روح الطبيب ، ولكنه وقف ونظر إلى عتبة
الباب وقال لرئيسه :

— عزرائيل أرسل إلينا روح امرأة ...
ولم يكذب كلامه حتى ظهرت بالباب روح الزوجة ، وما كاد
روح الزوج الطبيب يرى روح زوجته ، حتى صاح فرحاً :
— ألم أقل إنها لا بد لاحقة بي ...

واندفع كل منهما نحو الآخر ... وقالت روح الزوجة :
— آه يا زوجي العزيز ... لم أستطع البقاء هناك بعدك ، لقد
كانت ليلة فظيعة ... تلك التي رأيت نفسي فيها وحيدة بدونك ،
أناديك في الظلام ... ولم أتمالك نفسي عند الفجر ، وأنا محطمة
الأعصاب فتناولت كل ما كان بجوارى من أفراس الأسيرين
طالبة النوم الأندى ، والراحة السرمدية ، أو اللحاق بك ، وهما
ذا أمل يتحقق وأراك ... كيف أنت أخبرني ... إنك بخير فيما
أرى ، كيف قالوا إذن إنك مت؟ ... أنا أيضاً لست ميتة فيما أعتقد ...
كنت أتمنى الموت ... وقد شعرت عندما استدعوا الطبيب والأسعاف

بعد تناولي الأفراس ، أنهم يمسون حولي بكلمة « الموت »
ولكن ... أين هو الموت ؟ ... أين هو ذلك « الموت » ، ؟ ...
ولم يستطع « الملاك » صبراً ... فنفخ صائحاً :
— أف ... لعنة الله على هذه الممثلة ...

* * *

طفق الروحانيون كالأطفال ، وقد أعماهما الفرح عن كل
مآلئهما ، ولم يحفلا بمن حولهما ، وأدرك « الملاك » أنهما لن يفرغا
من الحديث ، إذا تركا وشأنهما ، فأرما إلى مساعده أن يقودهما إلى
حيث يغسلان عنهما آثار دوريهما ... إلى « بحر النسيان » ...
واتجه المساعد نحوهما ليذهب بهما ، فجفلا منه وابتعدا عنه ،
والتفتا إلى « الملاك » صائحين :
— أيراد التفريق بيننا ههنا أيضاً ؟ ...
— لا بد من ذلك ...

— نتوسل إليك ... نتوسل إليك أن تدعنا معاً دائماً ... في
كل مكان ، وفي كل زمن ، وفي كل دنيا ... ماذا يكلفك هذا
أيها الملاك اللطيف ؟ ...

— هذا قد يحدث لنا بعض الارتباك في العمل ...
قالها بصوت يبدت فيه رنة لين ، فمضى الزوجان في الإلحاح :

— تتوسل إليك ... مثلك لن يعدم وسيلة ... إجمعنا دائماً
ولا تفرق بيننا أبداً ...

— سارى ... سارى ... ربما دبرت لكما ذلك ... لكن إذهبا
الآن قبل كل شيء واغتسلا في البحر ...
— شكراً لك ...

لفظها الروحان بجملة وفرح ... وذهبا في الحال مع المساعد
صاغرنا إلى بحر النسيان ...

وهناك رجداً بحراً هائلاً له شاطئ جميل مثل شواطئ المصايف
الشهيرة ... والبحر يعج بالآرواح السابحة فيه . تغلب لهما المنظر ...
واندفعنا إلى البحر ضاحكين سعيدين كما كانا في الدنيا ...
وقفزاً معاً إلى الماء ، يتناغيان بأرق الأسماء ، وغمرهما مرج
أبيض كأنه رغوة الصابون ...

فإذا هما يحسان كأن شيئاً يزول عنهما رويداً رويداً ... وإذا
كل منهما يردد من أعماق نفسه متعجباً متسائلاً : « من أنا ؟ ...
ومن هذا الذى بجوارى ، ؟ ... وخرج من هذا البحر من خرج
إذعاناً لأوامر المساعدين ، وبقيهما حتى أشار إليهما المساعد
الموكل بهما ، فخرجا كما تخرج اللوحه المكتوبة من الماء .. لا أثر
فى نفسيهما لحرف واحد من حروف حياتهما الماضية ... وأعادها

المساعد إلى « الملاك » وقد جاءت نوبتهما في المشول أمامه ، لتوزيع الأدوار الجديدة ، فسأل كلا منهما :

— هل تعرف من أنت ؟ ... وأين كنت ؟ ... وهل تعرف من هذا الذى بجوارك ؟ ...

فأشار كل منهما بالنفى ... فقال « الملاك » كالمخاطب نفسه وهو يراجع سجله الضخم :

— إنى وعدت مع ذلك أن أجمعكما مرة أخرى فى دوران يصلحان لذلك ، فلتكن أنت إذن طياراً رياضياً ... وأنت فتاة عاطية ... أهبها المساعد ... إقذف بهما إلى مسرح « الأرض » ...

* * *

كل شيء كان قد أعد ليصير « هو » طياراً فقد خرج إلى الدنيا طفلاً فى أسرة متوسطة المركز طيبة المنبت ، وشغف فى حداثته بالألعاب الرياضية ، وغدا فى وتعلم فى المدارس ، وأصبحت له ميول وموجهات ، بعضها يدافع البعض ، ولكن الظروف النهائية وجهته على الرغم من كل شيء إلى الطيران ، فدرسه ، والتحق بأحدى شركات الملاحة الجوية ... أما « هي » فقد شبت خيالية الهزعة مدللة مترفة فى أسرة ميسورة الحال ، مفسكة الأخلاق ... الأب مشغول بنفسه وملاهيته ، والأم ساذجة ضعيفة

الإرادة ... وولعت الفتاة بالرتص والحياة الصاخبة الحديثة ...
وكان «هو» في طرف من المجتمع و «هي» في طرف ، ولم يكن
من السهل أن يلتقيا ... فهو لا يرتاد المجتمعات التي ترتادها هي ،
ومع ذلك فقد كان لابد من التلاقي، وقد حدث ...

كان يقود طائرته ذات يوم ... وكان الباب الصغير الذي يفصل
بين مكان قيادته وبين مكان الركاب مفتوحا على غير العادة ، فلبح
في أحد المقاعد فتاة تقرأ إحدى المجلات ... ما كاد يراها حتى
ارتجف ، وأرتجفت معه الطائرة بمن فيها ، فقد غفل لحظة عن
قيادتها ... وانزعج الركاب قليلا ، ورفعت الفتاة أهدابها الطويلة ...
فتقابلت عيناهما ... وعجب مهندس اللاسلكي لما حدث ونظر إلى
الطيار بجواره ، فالفاه يصيح بين ضوضاء المحركات قائلا : «إني
أعرفها ... أين رأيتها؟ ... متى رأيتها؟ ... وما كاد يهبط بالطائرة
في مطار الوصول ، حتى قفز منها وتبع الفتاة ، وتقدم يخاطبها كأنه
يعرفها من قبل ... أما هي فلم تنهره ولم تغضب منه ، بل أحست
الارتياح والرضا ، وشيئاً من الاطمئنان الخفي إلى هذا الشاب ...
ومضى هو يقول باخلاص حار :

— إني آسف إذ أضطر أن أقول لك تلك العبارة التي ابتذلها
الشبان اليوم : « أين رأيتك من قبل ،؟ ... ثقي أني لا أنتخذها حجة

لمحدثك .. ولكنى ... عندما وقع بهصرى عليك شعرت فى الحال
أنى أعرفك وأنى رأيتك فى مكان ما ، انتظرى ... ربما تلاقينا
آخر مرة فى ... فى بحر ؟ ...
فأجابت باسمه :

- من الجائز ... فى « بلاج » من هذه « البلاجات » ...
- ربما .. أخشى أن تكون الطائرة قد أزججتك عندما
ارتجفت ...

- لا ... إنى فقط عند هبوط الطائرة ، أحس عادة بعض
الصداع ... ولكن عندى دواء لذلك ...
- قرص واحد من الاسبرين يكفى ...
فظهر فجأة الارتياح على وجه الفتاة وهمست :

- اسبرين ! ... أرجوك ... لا تلفظ هذه الكلمة ، لا أمقت
شيئا مثليا أمقت الاسبرين ... ربما اهتمتنى بالخلل ... ولكنى منذ
صغرى أرتاع لمجرد رؤيته ... ساحنى ... هنالك أشياء تولد فينا
ولا نستطيع لها تعليلا ...

- لا تؤاخذينى ... إنى آسف لم أقصد إيذاءك مطلقاً ...
- أعلم ذلك ... هذا ليس ذنبك ... إنما هى نزوة من نزواتى
ليس لها مبرر ... ألا يتفق ذلك أحياناً لكثير من الناس ؟ ...

ألا يحدث لك أنت أيضاً أن تذكره شيئاً بدون سبب؟ ...
— نعم ... نعم ... أنا أيضاً في الصغر كنت أحس الاغماء
كلما ذكرت أمي كلمة «عملية جراحية» ... وعجباً حاول أهلي
تعليل ذلك ... ولكن هذه الحالة زالت بزوال عهد الصبا ...
وأصبحت بعدئذ شخصاً عادياً ...
— أرايت؟ ... فينا أشياء كثيرة متقاربة ...
— هذا من حسن حظي ...

* * *

منذ تلك الحادثة الأولى ، وهما يشعران كأن شيئاً يجذب
أحدهما إلى الآخر . . . ولم يمض قليل حتى تم بينهما الزواج ،
ولكن ... مرت الأيام وكل منهما يلحظ أنه يسير في طريق غير
طريق الآخر ... هو يأتي من عمله متعباً فيجد المنزل يصخب بأنغام
«الرومبا» و«الفوكس تروت» و«الهوجي بوجي» فيذهبوا برفق :
— أما تكفيني طول النهار ضوضاء المحركات؟ ...

فتجيبه بتهرم :

— محركات؟ ! ... هذا كل ما تعرفه ... أنت لست
«رومانتيك» ...

وكان يبالغ هذا الخلاف بينهما في الاتجاهات ... وكان يعمل

التنفس بأن هذا طيش قد تحوه الأمومة ... وأنجب منها طفلين ..
جميلين ، واسكن الأمومة لم تقهر عندها المزاج ... بل المزاج هو
الذى قهر الأمومة ... وأمسى الزوج الطيب يجد ليالى زوجته مشغولة
كلها بالحفلات والسهرات .. وتعدى الأمر إلى ما هو أمر .. فتجد
دخل عليها يوماً فوجد لديها شاباً لا يعرفه ... زعمت أنه من رفاق
الطفولة ، وأنه أخوها فى الرضاع ... وقام بين الزوج وزوجته شجار ،
حسمه الزوج بالخسنى مرعاة لأولاده .. ولكنه أدرك عندئذ أن
علة شقائه فى الحياة هى هذه المرأة ... وكرت الليالى حراء بالنسبة
إلى الزوجة اللعوب ، بيضاء من السهاد ، سوداء من الهم ، بالنسبة
إلى الزوج المنكود .. ولم يعد يحسن عمله لقلة نومه واعتلال صحته ،
وسمع همساً فى الشركة المتذمرة ينذر بالشر ، كما سمع همساً عن سلوك
امرأته يندى له الجبين الحر ... وأكلت نفسه الهموم ، ونخرت فى
قابه الشكوك ... وفى ذات ليلة دهم زوجته وهى فى أحضان شاب ...
فارتاحت وقالت متاعشة أنه معلم رقص يعلمها الرقصة الجديدة ...
وفقد الزوج صوابه فأخرج مسدسه وأطلق على زوجته رصاصة
أردتها قتيلاً ... وقفز «معلم الرقص» المزعوم قفزة وفوكس تروت
من أعلى السلم وهرب كما يهرب الثعلب من حظيرة الدجاجة .. وسمع
الجيران الطلق الناري ، فصاحوا ، وأقبل «البوليس» ، ينفخ فى صفارة

ووثاب الزوج إلى رشده ، وفطن إلى الفضيحة ، فأفرغ في رأسه
بوصاصة أخرى أردته قتيلاً هو الآخر ...

ورفع الملاك ، بصره من فوق ببجله الضخم على شجار روحين
داخليين عليه ... أحدهما يقول للآخر :

— سخيف ! ... أقسم أنك سخيف . . . تطلق على مسدسك
لسبب تافه كهذا ؟ ... ما أضيق ذهنك أيها الزوج المغفل ! ...
ولكن هل ينتظر من مثلك تصرف غير هذا ؟ ! ... أنك طول
عمرك كنت زوجاً مغفلاً ! ...

— اسكتي أيها المرأة ... لا داعي لسلطة اللسان ! ... ولكن
الذنب ليس ذنبك ... الذنب ذنبي أنا ... لا شك أني جئنت حتى
أقتلك وأقتل نفسي معك في نفس الوقت ... ما الفائدة ؟ ... ماذا
فعلت أنا إذن ؟ ... ها أنت ذى ممي هنا أيضاً ... يا اللصيبة ! ...
يا اللصيبة ! ...

ولم يجد الملاك ، بداً من التدخل ، فصاح فيهما طالباً إليهما السكون
واحترام المكان ... فتقدم إليه الزوج - أو على الأصح روحه -
صارخاً بتوسلاً :

— يا ملائكة السماء ! ... يا شياطين جهنم ! ... يا عفاريته
الجن ... خلصوني من هذه المرأة ! ...

مدرسة المخفلين

هب من فراشه بعد منتصف الليل على طرّيق الباب ، وقام
ايفتح ، وهو كالسكران من حلاوة النوم ، ومشى في دهاليز مسكنه
الذى يببت فيه وحده ، مشية غير الواثق من يقظته ، ثم فتح بغير
تفكير ، وإذا شاب يدخل صائحا :

— ارحموني ... ارحموني ...

ويندفع إلى البهو ، فيضيء أنواره كلها ، ويختار مقعداً ضيقاً
نخماً يرتضى فيه ، ويخرج من جيبه ورقة ، طفق يقرأ منها بأعلى صوته :
— ارحموني ... ارحموني ...

فأقبل صاحب البيت يجر قدميه ويسأل متثابراً :

— ما هي المسألة ؟ ...

— المسألة خطيرة جداً ، انه الحب ، انه السهاد ، انه البعاد ..
طول الليل وأنا أنظم هذه القصيدة ، لعلها ترق وتحن ، لقد قطعت
لها قلبي ، لأضع في كل كلمة قطعة ... اجلس واسمع ...

فلم يجد صاحب الدار بداً من الإذعان ، فالضيف صديق
لا يجب إغضابه ، وهو في عرف الذوق واللباقة مكلف بإكرامه
وارضائه ، فحاس مكرها ، يغالب الكرى ويتجلد ، ويصارع النعاس

ويتماسك ، ليسمع شعراً ونظماً في المزيج الأخير من الليل...
ونشر الضيف الورقة في يده وأنشد :
ارحموني ... ارحموني ...

طار نومي من عيوني
وتنبه صاحب البيت وقال وهو يفرك أجفانه الحمراء :
— عيون من التي طار نومها ؟ ...
— عيوني أنا طبعاً ...
— آه ... طبعاً ... عيونك انت فقط ...

وهضى الضيف في الملاوة ، حتى قطع فيها شوطاً ، فلم يجد
لإنشاده صدى ، ولم يسمع على خريدته تعليقاً ... فرفع بصره إلى
ذلك الذي يلقي عليه أبياته ، وينثر عليه آياته ، فوجده يترنح
ويتمايل ... لا من الإعجاب ... ولا من الطرب ... طبعاً ...
فكف عن القراءة وصاح :

— أنا آسف ، يظهر أنك متعب ، خير الأمور أن تقوم ...
فأيقن النائم بالفرج ، ولم ينتظر ، ووثب من مقعده ، كأنه عبيد
أعتق ، أو سجين أطلق ، ولسانه يلهمج بالشكر ، ولكن الضيف استأنف :
— نعم ... خير الأمور أن تقوم فتصب على رأسك كمية من
الماء البارد ، لتفيق وتنشط وتسمع بقية القصيدة ، لأنها طويلة جداً ...

وهنا لم يطاق صاحب البيت صبراً ... ولم ير في ذمته للضيافة حقاً .. فانفجر يلعن الحب والمحبين ، والشجر والنش ، وقصائد الغناء والبكاء . وكل ما على الأرض من نساء .. وترك المكان .. وذهب إلى حجرته ، واندس في فراشه ونام . . .

* * *

مرت شهور على تلك الليلة ، وهو لا يعلم من أمر صديقه المتيماً شيئاً ... ثم ترامت إليه الأخبار بأن ذلك الغرام الذي أنشدت فيه القصائد بعد منتصف الليل ، قد جر صاحبه إلى أخرج المآزق ، فالحيبة معلقة بعنقه كأنها قصيدة من المعلقات ! ... لا بد من الزواج ... تلك صيححتها التي لا تنزل عنها ، وبغيتها التي لا مقر منها ... ولكن كيف يتزوجها ، وقد عرف عنها ما عرف ؟ ... إنها فتاة لعوب ، من أولئك الفتيات المعروفات على شواطئ المرح ، المبرزات في ملامى الغزل . كم داعبت ولاعبت ... وقتنت وسحرت ... ولو أنطق الله سلك التليفون لجهر بعدد مغازلاتها ... ولو نحدثت رمال البلاج وموائد الأوبرج ، لما اختلفت على مقدار غمزاتها وبسماها ولفقاتها ...

ووقف حبيب الأمس وقفة الذائد عن عنقه ، الغيور على اسمه وشرفه ... كل شيء إلا الزواج من هذه الفتاة ... إن الحب

شيء والزوجية شيء آخر... لأنه ليس مغفلاً حتى يخلط بين مسائل الغزل ومسائل المستقبل... لا... لن يتزوجها... على الرغم من جمالها الفان ومركز أسرتها البارز... أما هي فقالت بلسانها ولسان من توسط في الأمر أن لعب الفتاة قبل الزواج لا يدل على شيء، وقد أصبح ما لوفا في عصرنا الحاضر... عصر الحرية والنور... فكثير من الزوجات الناجحات شبعن لهما ومغازلة قبل الزواج... إنها حجة واهية، يجب ألا يتذرع بها رجل جاد... وانتصرت المرأة في النهاية، كما تعودت دائماً أن تنتصر... ووقع الرجل في «الزوجية»، كمن يقع في «حفرة»... لا يدري كيف لان وأذعن، وقال «نعم»... ولا يذكر بالضبط كيف ساخت قدمه... ولكنه أخذ يملأ نفسه ويمدحها ويقنعها بقوله: «مع غيري ربما سحت المخاوف... ولكن معي أنا، مع مثلي... وأنا أعرفها أكثر من أمها التي ولدتها، وهي تعرفني وتعرف طباعتي الغنيمة وشكيمتي القوية وغيرتي الشديدة وعيني الساهرة»...

* * *

هذا ما كان من أمر الضيف المغم، أما ما كان من أمر صاحب البيت، فهو لا يعرف الشعر ولا الحب... وكل ما يعرف أن وحدته في بيته قد ثقلت عليه... وأن البيت بلا امرأة، جسد

بلا روح .. وأن همه في منزله أن يخرج من حجرة ايدخل أخرى..
ولسان حاله ينطبق على الأغنية الشعبية القديمة :
« المزوية ، طالت عليه

يا أمى اخطبى لى حلوة وغنية
ولم يكن لديه أم تخطب له ... ولم يكن من الضروري عنده
أن يتشبث بشرط الحلوة الغنية .. يكفيه الحل الوسط ... إنه
رجل مسالم قنوع ... واسكن ، من يبحث له ؟ ... وهنا تذكر سيدة
من صديقات الأسرة ... امرأة نصف وزوجة رجل محترم ، لها
علم راسخ بأخبار المجتمع الراقى ... خاطبها بالتليفون ، وأبان لها
عن طابته ... فقالت ضاحكة : « أنقبل نصيحتى ؟ ... الزواج فى
عصرنا الحاضر كما يقول المثل السائر : « على عينك يا تاجر ، ...
الطريقة المنسبعة الآن أن تحضر المجتمعات والحفلات وتختار من
تعجبك ، وتزأل عنها ... وما هى الفرصة سانحة ... فى الأسبوع
المقبل حفلة خيرية فى « الأريزونا » ستلقى فيها كل أنيقات القاهرة ،
من سيدات وفتيات ... تعال وانظر ... واخبرنى هناك وأنا
أدلك ، ...

ورافى موعد الحفلة الخيرية ... وكان مساء جميلا .. لمعت فيه ..

عيون النجوم وتألق القمر ... فارتدى رداء السهرة ، وذهب على .
بركة الله ... ولم يمض قليل ، حتى غاص في بحر أضواء السماء
والسكران والنساء ، وأوغل في روضة الشجر والبشر ... وامتدت
حواله أيدي الأغصان وأذرع الحسان .. واستقبلته كواعب بائعات
الفتنة في صورة بائعات للورد ... وأحطن به من يمين ومن
شمال ... إنه حصار الجمال ... ورد يبيع ورداً ... وأزهار تحمل
أزهاراً ... فأخرج من جيبه النقود عن غير وعى ، ونثر وبذر ،
ليحصد البسات والنظرات ... ها هي دى سوق الملاحه والرشاقة
والدلال ، ماذا يأخذ منها ، وماذا يدع ؟ ... ومن يجب ومن
يكره ؟ ... ومن ينبذ ومن يختار ؟ ... فغشى بصره ، وزاغ نظره ...
وارتبك وحرار ... ثم انتبه على صوت يناديه ... فإذا هي السيدة ،
الخبيرة التي سألها هدايته ... أقبلت عليه وقادته كالربان الماهر ،
في خضم موائد الأكل ومواكب الحسن ... وهمست في أذنه :
— ألم تعجبك واحدة ؟ ...

فقال على الفور :

— أعجبنى الكل : أحب هذه ذات الثوب الوردى ، وأحب
تلك ذات الثوب البرتقالى ، وأحب الدانية ذات الثوب البنى ...
وأحب البعيدة ذات الثوب المكحلى ... وأحب الضاحكة ذات

الشرب البندقي ، أحب هذه ، وهذه ، وهذه ، وهذه ..
أحب الجميع ...

فضحكت وقالت :

— ليس من المعقول أن تزوج كل الحفلة ... يجب أن يقع
اختيارك على واحدة بالذات ...

— هذه الحفلة « الخيرية » وإن شئت فقل « سوق النخاسة
العصرية » ، تعج ببضاعة تبهر العقل ... ولم أعد أدري أنا البائع
في هذه السوق أم المشتري ؟ ... لقد تمّت وضللت ... تخييرى لى
أنت بصائب حكمتك وواسع خبرتك ! ...

فأشارت إلى مجموعة من النساء متلازمة ، تزدى بالمجموعة
الشمسية ، وقالت :

— أاق نظرة على هؤلاء ...

— أكلمن للزواج ؟ ...

— بالطبع ... كل من ترى هنا . الفتيات يردن أن يتزوجن
والزوجات يردن أن يتطلقن ...

فأرسل نظرة شاملة على تلك النحور العارية ، والصنادور
المكشوفة ، والبسات الفاتنة ، والنظرات المفتونة ، وقال فى نفسه :
« أين ذلك العهد الذى كانت تسمى فيه المرأة « السيدة المصونة

والجوهرة المكنونة ١٩... ترى ماذا يجب أن تسمى اليوم؟...
وأخذ يفكر في اسم أو لقب أو وصف يمكن أن ينطق
عليها الآن ... ولكن جبل نف-كبره انقطع فجأة ... فقد سادح عن
بعد صديقه الضيف ، صاحب القهصيدة ، بدخل من الباب ، وقد
أحاطت به بأثعات الورد كالمعتاد ... ولحته في عين الوقت الست.
الدليلة الهادية ، فهمست قائلة :

— صاحبك ! ..

— نعم ... إنه يدخل وحده .. عجباً !.. أين زوجته إذن؟...
بلغنى أنك كنت إحدى الساعيات في الخير بينهما ... وكنت ممن
توسط في أمر ذلك الزواج ...
فقالَت السيدة بصوت الجذ :

— حقيقة ... شوشو صديقتى ، وكنت أظنها تمشى بعقل بعد
زواجها ... ولكن ، كلام في شرك ... أنا لا أحب أن أكون
مستولة عنها الآن ... أنا أفهم أن يكون للزوجة بعض الحق في
اللهو ... ولكن على شرط أن تكون في منتهى الحذر حتى لا يلاحظ
عليها شيء ... وأن تتصرف بنهاية الحرص حتى لا يبدو على
سلوكها شك ... أما شوشو فلا أدري ماذا جرى اليوم لعقلها ...
إنها - بضلا عن علم الجميع بأن لها حتى الآن أربعة عشاق أو خمسة

فى نفس الوقت - لا تحاول أن تدارى أمورها ، أو تستر
تصرفاتها ... تصور أنها فى وضغ النهار تنزل من سيارتها أمام ذهنية
معروفة ومعها حقيبة صغيرة تحوى « بيجامتها » الخيرية ... وكل
هذا تحت سمع السائق وبصره ، وتحت نظر من يمر من المعارف
والفضولين الذين قد يعرفون السيارة وصاحبها ... لا ... شوشو
فى الحقيقة منهورة اليوم أكثر من اللازم ، ولأنى أرى منها كل
ذلك وأقول فى نفسى : « ربنا يستر » ... فكل الناس يعرف سيرها
الآن ... أمرها شاع وراثتها فاحت ...

— وزوجها ... ألم يشم الرائحة ؟ ...

— الظاهر أنه مزكوم ، كأكثر الأزواح ...

وكان زوج شوشو عندئذ قد تخلص من بائعات الورد ، وسار
يفحص بعينه الجموع ، كأنه يبحث عن أحد ... حتى أشرف
عليهما ... فلما صار على خطوات منهما لمهما هو الآخر فأسرع
نحوهما وحياهما ... وعاتب صديقه صاحب البيت عتابا هادئا
يخالطه المزح ، لما لقيه فى بيته من إهمال ، تلك الليلة التى تفجرت
فيها شاعريته ... على أنه انتقم ، كما قال ، فلم يدعه إلى حفلة قرانه
ولا إلى بيت عروسه ... وهنا التفت إلى السيدة قائلا بلهجة
العجالة واللمفة :

— شوشو ... ألم تلهج بها هنا ؟ ... لقد سألتني أن أسبقها ...
قائلة إنها ستمر ببعض صديقاتها أولاً ... وقد رأيت الذهاب
لبعض أعمال آخرتي ، وجئت حاسباً أني أجدها ... لاشك أن
حديث صديقاتها شغلها عن الوقت ... إنه لمن حسن الحظ أن أقابلك
هنا الليلة ... إنها خير مناسبة أقدم لك فيها شكرى .. كاد يمضى
نصف عام على زواجى ، الذى توسطت أنت فيه ولو تعلمين كم أنا
سعيد ! ... لقد كنت مغفلاً يوم ترددت وتمنعت وتخوفت ...
ألا تذكرين كم جاهدت أنت لاقتناعى ؟ ... الحق كان فى جانبك ...
شوشو اليوم ملاك ... وإني أضحك من نفسى لرأى السابى فى
طيشها ... إنك ولا شك قد لاحظت اليوم كم تغيرت وعقلت ..
الحمد لله ، مخاوفى كانت فى غير محالها ... لقد ظلمت المسكينة . وهى
فى الحقيقة زوجة طيبة مخلصة يندر أن يوجد لها مثيل ...

ومضى فى هذا الكلام ... وصديقه صاحب البيت ، يصغى
إليه فاغراً فاه ... لا يصدق ما يسمع ... إلى أن تأكد له أن أذنه
لم تخدعه ... فهمس قائلاً :

— إنا لله وإنا إليه راجعون ! ...

ولم يلبث هذا الزوج أن جذبه من ذراعه يد أحد المعارف ...
فاستأذن ومضى معه إلى مائدة عامرة بالأصفااء وترك صاحبه

والسيدة الدالية الهادية يتبادلان النظرات ، صامتتين بلا تعليق .
وأخيراً نطقت السيدة قائلة :

— والله شاطره ! ...

— شاطره ؟! ... وهل هذا مصيرى أنا أيضاً ؟ ... وهل
نصبحك لى ستكون من هذا القبيل ؟ ...
فضحكت وقالت :

— لا ... لا تخف ... ظروفاك أنت مختلفة كل الاختلاف
ومع ذلك ... ما دمت قد رأيت بعينك وسمعت بأذنك فلا يصح
لى أن أغشك ... هل تريد الصراحة ؟ ... إذن اسمع رأى : هذا
جبلك الجديد وهذا عصرك ... خذ الأمور كما هى ولا تخدع
نفسك واعلم أن أكثر النساء هنا لكل واحدة منهن على الأقل
عشيقان أو ثلاثة ... وإن تلك التى يقال إنها نظيفة السمعة ولم
يسمع عنها أحد شيئاً ، هى التى لها عشيق واحد ... فإذا أردت
منى أن أغاضك ، أو أن أشجىك على مغالطة نفسك ، فهذا أمر
آخر .. ولكنى أنصحك أن تنظر إلى الواقع اليوم بعين الواقع ...
وسكنت لأن الموسيقى الراقصة دوت فى المكان ... وقام من
كل مائدة زوجان .. ودق الطبل ورن التحاس وعوى
«الكسوفون» .. فكان لمزيج أصواتها صدى يشبه صراخ

الحيوان الجوعان . . . ولعبت الأجساد بالأجساد ... واحمرت
العيون ، وندت الشفاه ، واتسعت الأحداق . . . واضطربت
الافكار في رأس طالب الزواج ، ماذا يصنع ؟ ... وماذا يقول ؟ ...
وعلى ماذا يعول ؟ ...

وظل في اختلاط فكره وحيرة رأيه ما ظلت الرقصة في
اختلاطها ولعبها بأفتدة الراقصين والمشاهدين . . . إلى أن انتهت
الرقصة . . . وصمتت الموسيقى ، وصفق الحاضرون . . . وأقبل
البعض على البعض يتحادثون ... فالتفتت السيدة الهادية إلى زميلها
الخطاب قائلة :

— لم أتلق جوابك ... ماذا قررت ؟ ...

فأطرق لحظة ، ثم رفع رأسه وقال :

— أمرنا إلى الله ... ابجئى لنا إذن عن واحدة شريفة ، عفيفة ،

سمحتها طيبة ، ليس لها غير عشيق واحد !!! ...

الشيخ البليسي

لم أره قط رؤية العين... ولكنني سمعت به من رأوه وعرفوه...
فقد كان لذلك الرجل صيت في الأقاليم منذ أكثر من ثلث قرن...
كان رجلاً فارح الطول، فيما يقال، ضخماً الجرم، ذا هيئة تفرض
على الناس التبجيل والاحترام... وكان شديد العناية بثيابه،
لا يرتدى منها إلا ما غلا في الثمن وزاد في المهابة... كان عظيم
الهامة، أشيب اللحية، طويل المسبحة، كبير العمامة...

* * *

روى لي محدثي عنه قائلاً :

— عرفت الشيخ والبليسي، لأول مرة في دار الباشا المدير...
دخلت عليهم في تلك «المنظرة»، التي كان يجتمع فيها من حين
إلى حين جلة علماء المديرية وأكابر أعيانها : فأبصرت «الشيخ»،
بطالته الجليلة في صدر المجلس، فما شككت في أنه أعظمهم فضلاً
وأرفعهم قدراً... فلما قدمني إليه المدرس، لم أمتظر حتى أعي اسمه،
وانكببت، لهيبته، على يده أقبلها... فسحبها مني برفق وأفسح
لي مكاناً إلى جواره، وهو يقول بصوته الوقور :
أستغفر الله يا بني، أستغفر الله... على من أخذت العلم

فى الأزهر الشريف ؟! ...

فعلت وجهى حمرة الخجل وقلت :

— لم أدرس العلم... ولكنى رجل مزارع من ذوى الأملاك...

فربت على بكفه قائلاً :

— وأنعم بالزراعة والزراع!... من يزرع خيراً يحصد خيراً،

ومن يزرع ...

وسعل سعالاً خافتاً غريباً كأنه عواء ... جهد فى كتفه بكفه

ومضى يقول متلطفاً :

— كيف اتفق أنى لم أرك هنا من قبل ؟ ...

فقلت وأنا ألقى نظرة على الباشا المدير المتشاعل عنا بضيوفه

وهم يتحدثون ، فيما بينهم ، هامسين ، حتى لا يزعجوننا ، فيما اعتقدت ،

بأصواتهم :

— انى قليل المجدى إلى البندر ... ولا أغادر أرضى وعزيتى

إلا إذا دعيتى إلى ذلك المصالح أو الضرورات ...

فقال الشيخ وهو يعد بأصابعه المرتجفة حبات مسبحته :

— حسناً فعلت يا بنى ... لقد قالوا فى الأمثال : الأرض انى

لا ترى قدم صاحبها لا تغلح ...

وسعل ذلك السعال الغريب المكتوم وقد وضحت معالمه

المشابهة لعواء الكلب .. فأخذتني رعدة ... وأحس ذلك منى ...
فقال على أذنى هامساً :

— هل أزعجك سعالى ؟ ... لا تخش شيئاً ، . . هذا أمر يأتى
أحياناً ويمر من الكرام . . .
فقلت له باطمئنان :

— بل لا تنزعج فضيلتك ... إنما هو برد عارض من برد
هذه الأيام . . .

فقال لى بنبرة وقورة هامساً :

— لا . . . يا بنى ... هذا ليس ببرد . . انى ما تعودت
الكذب ... إنما هو مرض آخر ...
— ليس خطيراً على كل حال ...
— أرجو أن يبرئنى الله منه . . .

وسعل ... أو على الأصح عوى كالكلب .. وهو يسد فيه
بكفه حتى لا يبلغ الصوت أسماع الحاضرين ... وألقى عليهم نظرات
قلقة مضطربة ... وهمس فى أذنى :

— لعل سعالى لم يصل إليهم ... أما أنت فمثل ابنى ... ولعلك
تسكتهم عنى ... إنها بلية ، ابتلانى بها الله ... وهو لا يبلى إلا عباده
الصالحين ... أسأله تعالى أن ينهى هذه الأزمة على خير حتى

أنصرف عن هذا المجلس ...

فأخذتني به شفقة ... ورأيت أنه يلم أطراف عباءته ، ليسرع
بالنهوض ، ولكن السعال أو العواء أدركه ... فلبث في مكانه
يحشوه فيه بكفه ... حتى هدأ قليلاً ... فقلت له :

— أما من علاج لهذا ؟ ...

— العلاج بيد الله ... وأخشى أن يكون قد فات أوانه ...
كل ما أرجوه ألا يكون دائي خطراً على الناس ... كني ما حدث
لذلك الخادم المسكين ...

— ماذا حدث له ؟ ...

قلتها مرتاعاً ... فقال بصوت مرتجف متعجب جاف :

— اشتدت على الأزيمة يوماً ... وقيل إنى كنت أسعل سعالاً
كعواء ذلك الكلب المسعور ، الذى عضنى ... فلما أراد غادى
إسعافى ومعاونى هبرته بأسناني وعضضته عضه أدت إلى وفاته ...
رحمه الله رحمة واسعة ... ورخصنى أنا أيضاً وغفر لى ...

وقطع سعاله حديثه ... وجعل يمزق كفه بأسنانه ، حتى لا يخرج
الصوت من فيه واضحاً ... وجعلت أنا أحارل الترحيح من مكانى
مبتعداً عنه من الخوف ... ولكن احترامى له وعطفى عليه وحرصى
على شعوره وخشيتى من لفت الأنظار إليه ... كل هذا سمرنى فى

مقعدى ... فتجلدت وقلت له بصوت متهدج :

— إنها ولا شك أزمة خفيفة ستتم ...

ولم أنم... فقد جحظت عيناه... وتغير وجهه.. وأرغى وأزبد.. وكشر عن أنيابه ، وانقلب - فى لحظة - ذلك الشيخ الوقور ، إلى كلب خطر عقور... وترك كفه وفغره فاه بعواء سافر مرعب... ومد يديه نحوى كأنهما مخالب ... وهم بالهجوم على ... وهنا لم أدر من الفزع إلا وأنا أثب نحو الباب وثبة ، صدمتني بعارضته الخشبية صدمة ، ما برح أثرها باقياً فى جبيني... وما كدت أجد نفسى فى فناء الدار ... حتى صحت من حلاوة الروح بالخدم والحجاب :

— الحمد لله... هربت بجلدى... لكن المصيبة هى مصيبة الباشا المدير وضيوفه... لقد أكلهم فضيلة الشيخ ونهشهم وانتهى الأمر!... وأردت أن أدفع بالحجاب إلى داخل « المنظرة » لينفذوا من يمكن إنقاذه ... وإذا بي أرى الباشا المدير وضيوفه ، يتوسطهم « الشيخ » الجليل ، خارجين من الباب يتمايلون ، والضحك يكاد يقطعهم تقطيعاً ...

* * *

فلما انكشفت لى الحقيقة وأيديت احتجاجى .. قال لى المدير باسمًا :

- ألا تعرف الشيخ « البليسي » ونوادره ودعاياته ١٩ ...
هذا هو الشيخ البليسي ... هل تعرفه الآن ؟ ...
فأشرت إلى الصدة في جيبتي وقلت ، بتسما :
— معرفة تركت في أثرأ ... !
فتقدم نحوي « الشيخ » كما يتقدم الممثل بعد أن مسح عن وجهه
طلاء التمثيل وقال :
— الحمد لله على السلامة ... ! إن شاء الله قريباً ...
فقاطعته صائحاً :
— مستحيل ... لا يلدغ - بل قل ... لا يعض - مؤمن ...
فبادر هو يكمل العبارة :
— من كلب مرتين .. هذا صحيح ... ولكن من قال لك إنني
سأكون كلباً في المرة القادمة ؟ ...
— إذا قابلتني في المرة القادمة فكن كما شئت وشاءت لك براعتك ..

* * *

ولم أقابله بعدها أبداً ... إلى أن ماتت وذهبت أيامه ... ولم يعد
لهذه المجالس والمناذر ، وجود ... وانقرض هذا النوع من الناس ...
وانقرض معه نوع من المواهب الطبيعية يتفجر من السليقة
الإنسانية ، كان لازماً لادخال الأنايس على مجالس ذلك العهد ...

إن لكل عصر رجال أنسه ... ولكن عصر « المنادر » كان له
رجال قلبا يجود بمثلهم الزمان ...
لا آسف على شيء أسف على أني لم أقابل « الشيخ البليسي » مرة
أخرى ... وإن كنت على ثقة من أنه كان سيتك في مرة أخرى
أترا لا يمحي ...

إبليس ينتصر

اتخذ قوم شجرة ، صاروا يعبدونها ... فسمع بذلك ناسك
هو من بالله ، فحمل فأساً وذهب إلى الشجرة ليقطعها .. فلم يكمد
بقترب منها ، حتى ظهر له « إبليس » حائلاً بينه وبين الشجرة ،
وهو يصيح به :

— مكانك أيها الرجل ! ... لماذا تريد قطعها ؟ ...

— لأنها أضل الناس ...

— وما شأنك بهم ؟ ... دعهم في ضلالهم ! ...

— كيف أدعهم ... ومن واجبي أن أهديهم ...

— من واجبك أن تترك الناس أحراراً ، يفعلون ما يحبون ...

— إنهم ليسوا أحراراً ... إنهم يصغون إلى وسوسة الشيطان ...

— أو تريد أن يصغوا إلى صوتك أنت ؟ ! ..

— أريد أن يصغوا إلى صوت الله ! ..

— إن أدعك تقطع هذه الشجرة ...

— لا بدلي من أن أقطعها ...

فأمسك إبليس بجناح الناسك ... وقبض الناسك على قرن

الشيطان ... وتصارعا طويلاً ... إلى أن انجلت المعركة عن انتصار

الناسك ... فقد طرح الشيطان على الأرض وجلس على صدره
وقال له :

— هل رأيت قوتي ا...

فقال إبليس الممزوم بصوت مخنوق :

— ما كنت أحسبك بهذه القوة...دعني وافعل ما شئت ...
نخلى الناسك سبيل الشيطان...وكان الجهد الذى بذله فى المعركة
قد نال منه ... فرجع إلى صومعته واستراح ليلته ...

فلما كان اليوم التالى حمل فأسه ، وذهب يريد قطع الشجرة
وإذا إبليس يخرج له من خلفها صائحا :

— أعدت اليوم أيضا لقطعها ؟ ! ...

— قلت لا بد لى من أن أقطعها ...

— أرتظنك قادراً على أن تغلبنى اليوم أيضاً ؟ ...

— سأظل أقاتلك حتى أعلى كلمة الحق ا ...

— أرنى إذن قدرتك ا ...

وأمسك بخفافه . . . فأمسك الناسك بقرنه . . . وتقاتلا
وتصارعا ... إلى أن أسفرت الموقعة عن سقوط الشيطان تحت
قدمى الناسك ... فجلس على صدره وقال له :

— ما قولك الآن فى قوتي ا ؟ ...

— حقاً ... إن قوتك لعجيبة ... دعنى وافعل ما تريد ...
لفظها الشيطان بصوته المنهدج المخنوق . . . فأطلق الناسك
سراحه ... وذهب إلى صومعته واستلقى من التعب والاعياء حتى
مضى الليل وطلع الصبح فجعل الفأس ، وذهب إلى الشجرة فبرز له
إبليس صاعحاً فيه :

— ألن ترجع عن عزمك أيها الرجل ؟ ! ...

— أبداً ... لا بد من قطع دابر هذا الشر ! ...

— أنحسب أنى أتركك تفعل ؟ ! ...

— ان نازلتنى فانى سأغلبك ...

، فتفكر إبليس لحظة ... ورأى أن الزوال والقتال والمصارعة

مع هذا الرجل لن تنجح له النصر عليه ... فليس أقوى من رجل
يقاثل من أجل فكرة أو عقيدة ...

ما من باب يستطيع إبليس أن ينفذ منه إلى حصن هذا الرجل .

غير باب واحد : الحيلة ...

فتناطف الناسك وقال له بلمهجة الناصح المشفق :

— أتعرف لماذا أعارضك فى قطع هذه الشجرة ؟ ! ... إلى

ما أعارض إلا خشية عليك ورحمة بك ... فإنك بقطعها ستعرض

نفسك لخط الناس من عبادها ... مالك وهذه المتاعب تجلبها على

نفسك؟ ... اترك قطعها وأنا أجعل لك في كل يوم دينارين تستعين
بهما على نفقتك ... وتعيش في أمن وطمأنينة وسلامة ! ...

— دينارين ؟ ! ...

— نعم ... في كل يوم ... تجدهما تحت وسادتك ! ...
فأطرق الناسك ملياً يفكر ثم رفع رأسه وقال لإبليس :

— ومن يضمن لي قيامك بالشرط ؟ ! ...

— أعهذك على ذلك ... وستعرف صدق عهدي ...

— سأجربك ...

— نعم ... جربني ...

— انفقنا ...

* * *

ووضع إبليس يده في يد الناسك ... وتعهدا ... وانصرف
الناسك إلى صومعته وصار يستيقظ كل صباح ، ويمد يده ويدسها
تحت وسادته فتخرج بدينارين ... حتى انهرم الشهر ... وفي ذات
صباح دس يده تحت الوسادة فخرجت فارغة ... لقد قطع إبليس
عنه فيض الذهب ... فغضب الناسك ... ونهض فأخذ فأسه ...
وذهب إلى قطع الشجرة ... فاعترضه إبليس في الطريق ، وصاح فيه :
— مكانك ! ... إلى أين ؟ ...

- إلى الشجرة ... أقطعها ! ...
- نهقه الشيطان ساخراً ...
- تقطعها لأنى قطعت عنك الثمن ! ...
- بل لأزيل الغواية وأضئ مشعل الهداية ! ...
- أنت !؟ ...
- أتمزأ بى أيها اللعين !؟ ...
- لا تؤاخذنى ! ... منظر ك يثير الضحك ! ...
- أنت الذى يقول هذا ، أيها الكاذب المخاتل !؟ ...

* * *

- انقض الناسك على إبليس وقبض على قرنه... وتصارعا لحظة...
لمحركة تنجلى عن سقوط الناسك تحت حافر إبليس...
تتصر وجلس على صدر الناسك مزهواً مختالاً يقول له :
- أين قوتك الآن أيها الرجل !؟ ...
فخرج من صدر الناسك المقهور صوت كالخشخشة يقول :
- أخبرنى كيف تغلبت أيها الشيطان ! ...
قال له إبليس :

ما غضبت لله غلبتني ، ولما غضبت لنفسك غلبتك...
ألمت لعقيدتك صرعتني ، ولما قاتلت لمنفعتك صرعتك ! ...

نصيب

في حياة كل رجل لحظة يشعر فيها لجأه بأنه مثل غطاء الطبق الذي لا يجد طبقه ، والويل لمن لا يفطن إلى هذا الشعور إلا متأخراً ، إنه يترك عندئذ كل شيء وينقلب مجنوناً بتلك الفكرة المسيطرة : البحث عن شطره الآخر ... كان بطل هذه القصة من هذا النوع من الرجال ... شاب يجد طموح ... تخرج في الجامعات مهندساً بارعاً ... درس في مصر ثم في الخارج ، وكان في مقدمة أقرانه دائماً .. لا يعرف غير العمل ولا تنظر عيناه غير طريق مستقبله الناجح ... وقد ركض في هذا الطريق بالفعل حتى بلغ درجة « مدير أعمال » وكاد يشرف على الخامسة والثلاثين وهو مستغرق هذا الاستغراق في عمله الهندسي . وإذا بغتة تدهمه هذه اللحظة الحاسمة ... وإذا هذا الغطاء الذي كان يجري على « سنه » ناهباً الأرض وكأنه كل شيء ، قد اصطدم بجدار تلك اللحظة العجيبة فوقف ودار حول نفسه دورات ، ثم انبطح على ظهره ورن معدنه رنيناً مكتوماً ، وكأنه يهمس : « ما أنت إلا غطاء الطبق » ... وأفاق المهندس بعدئذ وليس في رأسه غير فكرة واحدة : الزواج ... ودهش أصدقاؤه لرنين هذه الكلمة في فمه ، فهم لم يسمعوها

قط منه ، ما الذى حدث ؟ ... وهم الذين طالما فاتحوه من قبل فى هذا الأمر ، فلم يجدوا منه غير الصدوق وعدم المبالاة ... لقد كان كلما ذكرت أمامه « الزوجة » - أو النصف الآخر ، أو « شريك الحياة » - يبدو عليه كأن الموضوع لا يعنيه ولا يفهم مغزاه ، ويدسم أحياناً ابتسامة المتعجب لغلو الناس فى الوصف وإسرافهم فى التعبير ... لقد كان يحس إحساساً أكيداً أنه كامل بنفسه ... وأنه واحد صحيح ، لا نصف ، ولا ثلث ، ولا كسر من عدد .. إنه درس الحساب والجبر والرباضيات العليا فنذا يقنعه بأنه أقل من رقم ، وأنه نصف فقط ، وأن «الك نصفاً آخر فى مكان ما ينقصه ليكون الناتج واحداً صحيحاً ؟ ... هذه المسألة الحسابية الأدمية من الذى وضعها ؟ ... ولماذا ؟ ... ولمصلحة من ؟ ... لا ... لا ... إنه لا يظن الطبيعة مشغوفة إل هذا الحـ هو الأخرى بعلم الحساب ؛ لتجعل من الرجال والنساء أرقاماً أو كسوراً من أرقام تجمع بينها وتطرح ... كان هذا كلامه فيما مضى ... أما الآن فهو يقول لأصحابه : « صدقتم ... الحياة حساب ... الحياة مسألة حسابية ... أنا كسر ... أنا نصف ... اجمعونى من فضلكم على النصف الآخر ، ... لمسكن بقيت المعضلة الكبرى : كيف العشر على ذلك النصف ؟ ... هل بترك الأمر للمصادفة ، أو عليه هو بالسعى ؟ ... هل القدر هو

الذى يخط على لوح الوجود - بالطباشير - جامعاً الأنصاف بعضها إلى بعض ؟ ... أو أن على الرقم المشطور أن ينفلت هو بنفسه من تحت أصبع القدر وطباشيرته ويسرع زاحفاً على اللوح بحثاً عن بقيته ؟ ... ولبت المهندس أياماً لا يلقى على معارفه المتزوجين غير هذا السؤال الذى لا يتغير : « كيف عرفت زوجتك ؟ ... » ، وكانت الإجابات مختلفة ، فمنهم من يقول : « رأيها فى سهرة عند بعض الأقارب أو الأصدقاء » ، ومنهم من يجيب : « قابلتها فى سوق خيرية فأعجبته » ، فسألت عنها ، ومنهم من يذكر : « كانت على البلاج » ، فتبعها وعرفت عنوانها ، ومنهم - وهم النادرة فى هذا الزمان - من يؤمنون بالنصيب ، أو اليانصيب ، ولا يرضون بطرائق الاختيار الحديثة - من همس له : « والله البركة فى الخاطبة أم شلبي » .. ومار المهندس فى هذه الأساليب ، جديدها وقديمها ، لكنه لم ينسكرك ولم يرفض ولم يعترض ... لقد قبلها كلها ... كل سبيل يؤدي إلى شطره الآخر ان يتردد فى سلوكه ... لقد فتح عينيه واسعتين ، وذهب بهما يحوس خلال السهرات والطرفات والشواطئ والأسواق ... لكن ... وا أسفاه : أما هذه فقصيرة وأما تلك فطويلة ... والأولى أنقها لا يروقه والثانية فما لا يعجبه ... ثم إذا هو أغضى عن المظهر فن يدره بالخبر ؟ ... لقد جند كل

أصدقائه وزوجاتهم للبحث معه ... ذلك أنه لم يكن له أقارب في القاهرة ... فإن أهله في الريف ... وليسوا ممن يحسنون فهم ما يريد ... ولم تكن صلته بهم تتيح لهم التدخل في شئونه ، فقد كانوا أقارب من درجة بعيدة ... لأن والديه ماتا بعد تخرجه في الجامعة بقليل ... لذلك كان اعتماده على معارفه ... وأغلبهم كان يرتاب في أنه يأخذ الأمر اليوم على سبيل الجد ... فكانت معارفهم له ضئيلة فائزة في أكثر الأحيان ، ثم زادهم فتوراً وانقراضاً من حوله مارأوه من زرده في الاختيار وعدم بته في الأمر ، وبذه كل فتاة عرضت عليه بحجج مختلفة ... على أنه لم يكن في الحقيقة متعنتاً ولا متعللاً ، إنما هو ذهنه كان قد صور له امرأة بملاحها وخصالها ، وأوهمه أن تلك هي نصفه الذي لا يرضى به بديلاً ... فهو لا يريد أن يفتق إلا طبقاً للنموذج الموضوع في رأسه ... وطال بحثه عبثاً وذهب جريبه سدى ... فقعد ذات مساء يائساً ونظر إلى السماء قائلاً : « تعبت أيها القدر ! ... الكلمة لك أنت الآن ... سأغض عيني وأمد يدي ، فضع فيها من تشاء ... » وما جاء الصباح حتى أرسل في طلب الخاطبة أم شلبي ، نعم ... ولم لا ؟ ... مادام قد نزل عن نماذجه وصوره ، وقنع بالنصيب المكتوب في اللوح ، وأسلم قياده للقدر يخط بيده ما يريد ... فماذا يصنع غير ذلك ؟ ...

أليست أم شلبي من عملاء القدر أو من أدوانه ؟ ... من يدري ؟ ...
لعلها هي الطباشيرة في أصبعه ... إذ لا يمكن للقدر أن تسكون له
وسيلة أخرى يفرض بها في مثل هذا الأمر إرادته السماوية ...
وأقبلت تلك الطباشيرة ، فإذا هي امرأة ضخمة بدينة سمينة جسيمة
كانها فيل ... وهل ينتظر أن يملأ يد القدر أو يلبق بأصبعه حجم
أقل من هذا الحجم ؟ .. وعرض المهندس الخاطب طلبته ، ووصف
لها على قدر الإمكان بغيته .. فغضت المرأة واختفت أياها ثم عادت
ومعها سجل حافل بأسماء الأسر ، ومندبل كبير يضم عدداً من الصور
الفوتوغرافية لفتيات على كل طراز .. فوقع في حيرة جديدة :
كيف يتخير وأياها يختار ؟ ... وحدثته الخاطبة فيما حدثت عن فتاة
تصلح له .. ولكن - يا خسارة - ! ... تقدم إليها خاطب طيب
ليس من السهل رفضه ... تصلح لي ؟ ... وأين صورتها ؟ ... وخيل
إلى المهندس في تلك اللحظة أن هذه الفتاة هي امرأته ونصفه وحله ،
وأن عليه أن يختطفوها من مناسه اختطافا ... وأين صورتها ؟ ...
فقال الخاطبة أن أهلها رفضوا كل الرفض أن يعطوها أية صورة
لها ... ولسكنها جميلة وأى جمال فتشبت المهندس بأذيال الخاطبة
وصاح : « لابد من الصورة » .. ففكرت ملياً ثم نظرت إليه نظرة
دماء ، فثلبها لا يعجز عن الحيلة ... لقد لحقت في بهو الدار صورة

الفتاة معلقة على الحائط ... فهي ستذهب إليهم لتخبرهم بأمره ...
ثم تغافلهم وتخطف الصورة المعلقة وتأتى بها إليه ... نهضت من
فورها وذهت وتركت المهندس فريسة ذلك الإحساس ... إنها
هى ... إنها هى ... لقد وجدها أخيراً ما سر هذا الشعور ؟ ...
أترأه الغموض الذى يشملها ؟ .. إنه لم يرها وينازعه فيها منذ الآن
منازع ... كيف هى ؟ ... وهل يفوز بها ؟ ... إنه واثق أن صورتها
هى صورة المرأة التى يبحث عنها ... ولبت يفكر فى ذلك طول
مصابته ... وتقدم الليل وأراد أن يأوى إلى فراشه ... ولكن النوم
استعصى عليه فقام وأضاء المصباح الكهربائى الصغير فوق رأسه ،
وتناول كتاباً يهده من أعصابه الثائرة ... وإذا نظره يقع على
صفحة تحتوى قصة قديمة لرجل من بلاد الهند كان يبحث هو أيضاً
عن زوجة أحلامه ، فكان بحثاً مضاً على غير طائل ، فقال له قائل :
« لا تياس ... ابحث عن الزوجة ولو فى الصين ، فلم يبطل الرجل ...
وركب فى الحال البحر إلى بلاد الصين فكسر المركب به وبمن معه
فى وسط البحر ... فتجا مع بعض القوم على خشبة من خشب
المركب ، ووقعوا فى مكان لا يدرى أى مكان هو ، فأقاموا فيه
أياماً لا يجدون قوتاً حتى أشرفوا على الموت ، فقال بعضهم لبعض :
« تعالوا نعاهد الله على أنفسنا أن ندع له شيئاً فلعله يرحمنا ويخلصنا

من هذه الشدة ، فقال بعضهم : « أصوم في كل عام شهرين » .
 وقال البعض : « أصلي في كل ساعة ركعتين » ، وهكذا ... إلى أن
 قال كل منهم شيئاً والرجل طالب الزوجة ساكت فقالوا له :
 « قل شيئاً » ١ ... فحار ولم يجيء على لسانه إلا قوله : « لا آكل اللحم
 فيل أبدأ » ١ ... فصاحوا به : « الهزل في مثل هذا الحال » ١٩ ...
 فأجابهم : « والله ما تعدت الهزل ، ولكنني منذ بدأت وأنا أعرض
 على نفسي شيئاً أدعه لله فلا يخطر على بالي غير الذي لفظت به » ...
 ومرت اللحظات بهم ، فقال أحدهم : « لم لاناظوف في هذه الأرض
 متفرقين بحثاً عن القوت ، فن وجد شيئاً أنذر به الباقين ، والموعد
 هذه الشجرة » ؟ ... فتفرقوا في الطرق ، وإذا أحدهم يرجع بعد
 قليل بولد فيل صغير ، فلوح بعضهم لبعض فاجتمعوا ... وأخذوا
 الفيل الصغير واحتالوا فيه حتى شوهه وقعدوا يأكلون ، وقالوا
 للباحث عن الزوجة : « تقدم وكل معنا » ، فقال : « أنسيتم أني
 منذ ساعة ركته لله ؟ ... إني لن أرجع في شيء تركته لله أبدأ ...
 ولو كان في ذلك موتى جوعاً » ، وأكل أصحابه بدونه ، وأقبل
 الليل ، فتفرقوا إلى مواضعهم التي كانوا فيها يبيتون ... وأوى هو
 إلى أصل شجرة كان يبيت عندها ، فلم يكن إلا لحظة ، وإذا بفيل
 عظيم قد أقبل وهو ينعر والحلاء كله يندك بنعيره ، وهو يطلب

القوم... فقال بعضهم : « قد حضر الأجل » ، فاستسلموا وتشهدوا
وأخذوا في الاستغفار والتسبيح ، و طرحوا أنفسهم على وجوههم ،
فجعل الفيل يقصد واحداً واحداً ، فيشمه من أول جسده إلى آخره
فيأدا لم يبق فيه موضع إلا شمه ، شال إحدى قوائمها فوضعها عليه
ففسخه ثم تركه كالعجين ، وقصد آخر ففعل به مثل ما فعل
بالأول... إلى أن لم يبق من القوم غير الباحث عن الزوجة ، وهو
جالس منتصب يشاهد ما يجري ويستغفر ويسبح ويقول : قاتل
الله ذلك الذي نصحنى هذه النصيحة الشوم ، وأخرجنى من بلادى
فى طلب... ، ولم يتم كلامه... فإن الفيل لم يمهله وقصده للفور...
فارتدى الرجل على ظهره مستقبلاً الموت ، وجعل الفيل يشمه كما
شم أصحابه من قبل ، ثم أعاد شمه مرتين أو أكثر ، ولم يكن فعل
ذلك بأحد من الآخرين ، وروح الرجل فى خلال ذلك تكاد
تخرج فزعاً... ثم لف خرطومـه عليه فشاله فى الهواء ، فظنه الرجل
يريد قتله بقتلة أخرى ، فجهر بالاستغفار ولمكن الفيل رفعه
بخرطومـه وأجلسه فوق ظهره ، وانطلق به يهرول نارة ، وينهـادى
أخرى... إلى أن طلع الفجر واشتد ضوؤه ، فإذا الفيل قد أنزله
عن ظهره ، وتركه على الأرض أمام باب قصر نفخ... ورجع إلى
الطريق التى جاء منها... ولبث الرجل فى موضعه لا يعقل ولا يعى

من الفزع والجزع ... ولم يشب إلى رشده إلا وهو داخل القصر ...
فانتبه إلى نفسه ... فإذا هو في فراش وثير وثياب جديدة وإلى
جواره فتاة كالبدرة هي ابنة صاحب الدار ... طفقت تعنى به وهو
ينظر إليها ويهمس قائلاً : « أمن الموت إلى الحياة ... وأى حياة ! ... »
إنها هي ... هي ! ... ، نعم ... كانت هي ضالته التي تجشم من أجلها
السفر والبحر والخطر ... فقد تزوجها بعد ذلك وكانت نعم الزوجة
والخدين والشريك ...

وانتهى المهندس من مطالعة هذه القصة القديمة ، وهو يقول
لنفسه : أم شلبي ... هذا القبل الآدمي ... من يدري ... لعلمها هي
الأخرى تحملني غداً إلى تلك الأسرة التي أجد في فئاتها ضالتي ...
وطالع الصبح ... وانتصف النهار ... وجاءت الخاطبة تحمل في
ملاحتها ، صورة في إطار ، أمسك بها المهندس متلماً ونفوس فيها
ملياً ... ثم طفق يقول كالمخاطب لنفسه : « نعم ... لا بأس ... حقيقة
إنني أردت امرأتى هكذا ! ... » وسحبت أم شلبي الصورة من يده
برفق ، قائلة له إنها ستقع في الحرج إذا تفقدوا الصورة قبل ردها ...
وأن عليها الآن أن تعود بها فوراً لتضعها في مكانها ... وأن ما يجب
عليه عمله منذ الساعة وقد راقته الفتاة أن يعرض قدماً إلى أهلها
فيعرض طلبه ، قبل أن يرتبطوا بالمخاطب الآخر ، وإذا شاء فإنها

تدبر له موعد المواجهة مع أبيها في أقرب وقت... فقال لها : « نعم ...
أسرعى ... الخير فيما اختاره الله ... »

لم يمض يوم حتى عادت أم شلبي نلهمث وتدعوها إلى زيارة والد
العروس ، عصر ذلك اليوم ، وتوصيه أن يكون حريصاً على
الذهاب في الموعد المحدد بغير إبطاء ولا تأخير ، فإن أهل الفتاة
رفضوا بادئ الأمر الكلام في شأن أى خاطب جديد فهم قد رضوا
عن الخاطب الأول ، ولم يروا بهراً لترك هذا الباب مفتوحاً بعد
ذلك ، ولكن الخاطبة بذلت أعظم الجهد في إقناعهم بمقابلة هذا
المهندس الكفاء ، فمن يعلم أين النصيب؟ ... وما ضرهم أن يأذنوا له
في زيارة قصيرة ، لقد احتمالت وصنعت ما استطاعت لتفتح له
ذلك الطريق المغلق ، فلم يبق إلا أن يصنع هو ما يستطيع ليقنع
والد البنت ، وهو شيخ وقور متقاعد من رجال الجيش ، دقيق في
نظامه ، صارم في أحكامه ، فقال المهندس للخاطبة : « لا تخافى ...
في الساعة الخامسة بالضبط أكون هناك ... » وقد بر بوعدة ،
فما أزلت الرابعة والنصف حتى كان قد تمها وتجهز وارتدى خير
ثيابه ، ووقف أمام المرأة يضع منديله الحريري في جيب الصدر ،
وينظر إليه وقد تدلى وتهدل ، فرأى أن يخفى بعضه ولا يبرز غير
طرفه ، اعتدالا في إدعاء الأناقة ، واقتصاداً في إبداء الخيلاء ،

ورضى عن مظهره ... فنزل إلى الطريق قاصداً بيت العروس ،
وسار في الشارع وكل شيء فيه مبتهج فرح ، وقد غمر الاطمئنان
قلبه فبدد حيرته ، لقد انتقى له القدر شريكته ، فلم يبق إلا أن
يتقبلها منه شاكرأ ، آه للإنسان ! ما أشد عجزه !... هنالك
مسائل لا يرتاح إلى حلها إلا إذا سقط عليه المفتاح من السماء !...
وهنالك مواقف يواجه فيها الإنسان مفرق طرق ، فلا يسعفه
إلا دفعة في ظهره من يد القدر نحو إحداها ... كانت مثل هذه
الخواطر تجول في ذهن المهندس وهو يواجه مفرق طرق ميدان
سليما باشا ، وإذا هو فجأة يحس دفعة في ظهره شديدة قاصمة قد
طرحته على الأرض ، وإذا شيء كالعجلات يمر فوق جسمه ...
وكان هذا مبلغ وعيه لكل ما حدث ...

ليس يدرى على التحقيق كم من الزمن مضى عليه وهو في إغمائه ،
لكنه عندما تنبه وجد نفسه على فراش وثير في سرير مستشفى ،
وجسمه كله مغلف بالأربطة الصحية وقد سمع من يهمس حوله
قائلاً : « لا تتحرك ، فحول بصره جهة الصوت ، فرأى طبيباً
ومرضاً وممرضة في ثيابهم البيضاء ، وقد علم منهم أنه قد أجريت له
عملية « جراحية ، وأنه قد كسر له ضلع ، وأنه في هذا المستشفى
منذ أيام ، وأن حالته كانت خطيرة بادية الأمر ، ولكن الخطر

زال عنه الآن ... وأنه سائر في طريق الشفاء ... وأراد المريض أن يتكلم وأن يستفسر فمنعه الطبيب من بذل أى حركة أو جهد ... ولم يسمح له إلا بالرد المقتضب على أسئلة رجال الضبط الذين جاءوا لسماع أقواله فى الحادث ، وقد أجابهم بأنه لم ير شيئاً ... لا السيارة التى صدمته ولا لونها ولا سائقها ... نغموا محضر تحقيقهم وانصرفوا عنه ، ونأمل هو حاله لحظة راكتفى بالهمس فى أعماق نفسه :

ضلع مكسور ... هذا كل ما وصلت إليه ... أنا الآن كسر بحق ... دون أن أظفر مع ذلك بالنى تكلمنى ... ثم ذكر آخر يوم كان فيه صحيحاً ... وكان سائراً إلى بيت العروس ... ترى ماذا تم فى هذا الأمر ؟ ... أترى الفتاة ما برحت من فصيده ؟ ... أم أن الخاطب الأول قد سبقه إليها ، بينما هو طريق ، كالجواد الذى سقط فى ميدان السباق ؟ ... كيف السبيل إلى معرفة النتيجة ؟ ... لو استطاع على الأقل أن يبعث فى طلب « أم شلبي » ليعلم منها .. ولكن ما الحيلة فى هذا الطبيب الذى بمنعه من الكلام والحركة ؟ ... فليصبر يوماً آخر أو يومين ... يا لسوء حظها إذا كان قد فقدما بسبب هذا الحادث ... الويل للجاني الذى صدمه عند ذلك ... إنه لن يغتفر له أبداً ... لا كسر ضلعه ، بل تلك الطامة

الأخرى ، ضياع نصفه الآخر بعد أن عثر عليه ...
وحانت منه التفاتة إلى ماحرله ، فوجد ما أدهشه : باقات من
الورد والأزهار الغالية في الآليات ، وقارورات فاخرات من ماء
« الكاونيا » ، وكتب مجلدة مذهبة لقتل الوقت ، وصناديق ثمينة
مفعمة بالحلوى وملوءة بالسجائر ... وكل ما يمكن أن يهدى إلى
مريض معزز مدلل ... عجباً ! ... من هذا الذي يهتم بترفه كل هذا
الاهتمام ، ويعنى بشخصه كل هذه العناية ؟ ... وسأل طبيبه بإيماءة
من عينه عن أحضر كل هذه الهدايا ... فلم يزد الطائيب على أن
قال بسرعة وبلمحة من يقول شيئاً معروفاً للجميع :

— الست ...

وانتفت الطائيب إلى مروسية يصدر إليهم الأوامر الأخيرة
قبل انصرافه ... وغادر الجميع الحجرة من فورهم ، تاركين المريض
مستغرقاً في الدهشة : « الست » ... ومن هي هذه « الست » ؟ ...
وعادت الممرضة وفي يدها أنبوبة زجاجية وحقنة ، ملأتها شام
وخزت المريض بإبرتها ... فانتظر حتى فرغت من عملها ، فسألها
أن تحدثه مليلاً عن تلك « الست » ... وكانت الممرضة ثائرة ...
فندفقت تصفها بأنها أجمل وأكرم سيدة رأيها ...
وظفقت تنخير المهندس المريض بطائفة من التفاصيل لم تزد.

إلا عجباً واستغراباً ، فهذه «الست» الحسنة تأتي كل يوم لتسأل عن صحته ... وهى فى كل مرة تأتى بالأزهار الجميلة ، وتضع النقود فى أيدى مرضيه بسخاء وترجوهم أن يخصوه بكل عنايتهم ، وأنها كانت فى ساعات الخطر الأولى تسأل عن تطورات حالته فى جوف الليل . بالتليفون بعدة مرات .. وأنها حضرت « العملية الجراحية » منتظرة فى حجرة مجاورة كى تطهئن على عواقبها ... وأنها أصرت على استدعاء « كونسولتو » من الأطباء قبل إجرائها لتزداد اطمئناناً .. وأنها دفعت نفقات كل ذلك من جيبتها بدون تردد ... بل الأتعجب أن وجوده فى هذا المستشفى فى هذه الحجرة من الدرجة الأولى الممتازة بكل ما يلزم له من علاج وغذاء ورفاهية وترف هى التى تتولى نفقاته ، وأن المسال يسيل من بين أصابعها كالماء فى هذا المستشفى من أجله ... ولا هم لها ولا تفكير إلا فى شئ واحد : « إنقاذ حياته بأى ثمن » ، ... تلك هى كلمتها التى ترددها كل يوم وكلما جاءت ... ولما كل من تقابل من أطباء ومرضين ... وختمت الممرضة حديثها قائلة ببساطة :

— طبعاً ... زوجتك ... طبعاً أنها تهتم بحالتك وتضعى بكل شئ ... ان شاء الله أبشرها بالأخبار السارة عن قريب ... وخرجت من الحجرة بسرعة ، وتركته يقول كالمنجول :

— زوجتي ؟! ...

وجعل يعالج حل هذا اللغز ، إلى أن اهتدى إلى رأى
شبه معقول :

لعل هذه « الست » التي يحسبونها هنا زوجته ليست في حقيقة
الأمور سوى تلك الفتاة « العروس » التي كان ذاهباً لخطبتها ...
ولعلمها علمت بالحادث ، وأثر في نفسها ما وقع له وهو في طريقه
إليها ... فحملها ذلك التأثير الشديد لهذا الاخلاص كله على
العناية به ... إذا كان ذلك حقاً فهي إذن الشريكة المنشودة ...
نعم ... ما أكرم نفسها ! ... وما أسعده بمثلها ... ثم لماذا تتحمل
هي نفقات علاجه ؟ ... أتراها اعتبرت نفسها زوجته منذ الآن ،
لمجرد أنه كان ذاهباً يطلب يدها ؟ ... إذا كان هذا ما وقع في نفسها ،
فإنه ليقرها عليه ... فهو أيضاً يعدها زوجته من الآن ... بل منذ
اللحظة التي سقط فيها تحت السيارة من أجلها ... يالها من زوجة
عزيرة .. إن رسمها في رأسه الساعة مشوش مختلط ... ولما
ذبح ذلك يذكر بعض ملاحظها شاهداً في الصورة ذات الإطار ...
لا بد له على أي حال أن يراها سريعاً ، ليشكرها على الأول ...
وإنتظار حتى جاءت الممرضة فقال لها :

— أريد أن أرى ... زوجتي ...

فأجابته الممرضة بأنها لم تحضر بعد ، ووعدته بأن تدخلها عليه
توأم عند حضورها .. ولبت المريض يعد في انتظارها الدقائق ثم
الساعات ، ثم جاءه الليل ، ثم مر يوم وثلاثة وأربعة ... دون أن
يسمع من الممرضة سوى ألقاظ الدهشة والاستغراب ... فهمى
أيضاً تعجب لاخفاء هذه السيدة الآن ... بعد أن كانت نجمة
المستشفى في اليوم مرتين ... ووقع المهندس لافي الهم والغم وحدهما
بل في الحيرة أيضاً والخرج ... بماذ يعمل للممرضة وللآخرين هذا
التصرف العجيب من زوجته المزعومة ؟ .. فأثر الصمت أمامهم
والاقلاع عن ذكرها ... ولكنه ظل الأيام يحاول عبثاً أن يكشف
لنفسه حقيقة هذا السر ... إلى أن بدرت ذات يوم من الطبيب
بأدرة أنارت قليلا هذا الأمر ... فقد قال له وهو يفحص ضلعه
المكسور :

— حالتك الآن على ما يرام ... تستطيع الآن أن تضطجع
على وسادة خلف ظهرك ، وأن تتكلم كما تشاء ... وأن تقرأ هذه
الكتب والصحف والمجلات التي ترسلها لك الست
فصاح المريض كالغريق الذي وجد خشبة :
— الست ؟ ... أين الست ؟ ...
فقال الطبيب باسماء :

— إنها الآن مطمئنة غاية الاطمئنان بعد أن أكدت لها منذ أسبوع زوال كل خطر ...

— ولكنى ... أعني ... هل حضرت ؟ ...

— لا ... لقد قالت لى فى آخر مرة إنها لم تعد ترى ضرورة للحضور ، ما دام الخطر قد زال ... وإنها تسكتنى الآن بالسؤال عن الحالة بالتليفون مرة كل يومين أو ثلاثة ...

— هل أستطيع أن أكلف أحداً بطلبها بالتليفون ؟ ...

— بالتأكيد ... اعط رقم التليفون للممرضة وهى تقوم بذلك فى الحال إذا شئت ...

— رقم تليفون البيت ، معروف هنا طبعاً ...

— لا أظن ... إنها هى التى تطلبنا دائماً ... ومع ذلك ألا تعرف أنت الرقم ؟ ...

— آه ... طبعاً .. طبعاً ...

وضحك ضحكة يخفى بها ورعته ... وانصرف الطبيب ، وتركه يتخبط فى ظلام أكثف مما كان فيه ... من هذه السيدة التى تعطف عليه كل هذا اللعطف وهو فى الخطر ، فإذا انقشعت غمته وتحسنت حالته ، انصرفت عنه فى غير اكتراث كأنها لا تعرفه ... ثم كيف يتصل بها الآن والمسالك دونها موصدة ؟ ... ونادى الممرضة

عرجا منها أن تبحث في إدارة المستشفى وفي كل مكان عن عنوان «الست» أو رقم تليفونها ... هوها إياها أن زوجته هذه تعتمد إخفاء مكانها عنه وتتكلف هذا التصرف معه ، لأسباب خاصة ، لكن المريضة لم تعثر لهذه السيدة على عنوان معروف ولا على رقم تليفون ... وكل ما يعلونه عنها في المستشفى أنها هي التي تحضر وهي التي تستفسر دون أن تترك خلفها أثراً ... ولم يجد المريض آخر الأمر غير وسيلة واحدة ... ما كاد يهتدي إليها حتى صاح فرحاً كمن وجد الفرج ... والتفت إلى المريضة قائلاً :

— اسمي ! ... أرجوك ... إذا سألت عني «الست» بالتليفون في المرة القادمة ، فأخبريها أنه قد حدث لي نكسة ، وأني لن أعيش أكثر من ساعتين ! ...

فترددت المريضة ... فأقنعها بورقة مالية دسها في كفها ... فقبلت المجازفة بهذه الأكذوبة لوقت محدود ... ومضى يومان ... وإذا المريضة تدخل على المهندس ممرولة لاهثة وهي تقول :

— تكلمت ...

— صحيح ؟ ... تكلمت ؟ ...

قالها وقد كاد قلبه يثب من جوفه ... فأكدت له المريضة أن «الست» تكلمت الساعة بالتليفون لتستفسر ، فأجابها بالرد المتفق

عليه ، فذهرت وألقت بالساعة ، وهى قادمة بعد دقيقتين ... فلم يدر المريض ما يصنع من الفرح ... ومد يده على غير وعى منه يلتمس زجاجة عطر الكولونيا ليتطيب... وهو يوصى الممرضة أن تدخلها عليه للفور ، وأن لا تنسى أنه يمتضر... وخرجت الممرضة تستقبل القادمة... ولم يمض قليل حتى سمع المريض صوت المرأتين يقترب ... فأغلق عينيه نصف إغلاق ، واستلقى بلا حراك ومثل دور من يموت .. ودخلت زوجته ، المزعومة وتسمرت بالعتبة تنظر إليه شاحبة الوجه ... فكاد يمثل الموت يموت حقاً ... من هذه المرأة ؟ ... إنها ليست صاحبة الصورة التى فى الإطار ! ... هو الذى وطن النفس وأعد الذهن لرؤية امرأة يعرفها ... أو يعرف رسمها على الأقل ؟ ... ها هو ذا أمام امرأة جديدة لم يرها قط فى حياته ، ولا يدرى عنها شيئاً ... وانهار كل ما كان قد بناه فى لحظة ... فليست هذه المرأة بالعروس التى كان ذاهباً لخطبتها ... وليست هذه العناية وهذا الاهتمام وليد تلك الأسباب التى كان قد رتبها واستنبطها واستشجعها ... هذه امرأة غريبة عليه وعلى ذهنه وفكره ... لم يرها من غير شك فى الماضى ، ولم يصادفها فى حقيقة أو خيال ... فمن تكون ؟ ... ومن أين طلعت له ؟ ... وما سر عنايتها به ولمقتها عليه .. وقلقها فى ساعات أزماته . . .

وتكلفتها جميع نفقاته ؟ ... هذا هو اللغز الذى فاق جميع ما عداه ...
ولكن هذه المرأة التى لم يعرفها ولم يرها ... ما أجملها ! ... إنه
تخيل فعلا يوهأ ما ، نوعا من الجمال تمناه فى امرأته ... ولكنه لم
يستطع تخيل حسن كمذا ... إنه الكثير عليه هذا الجمال ثم ما أروع
وجهاها فى هذا الشحوب ... لقد شحب وجهها هكذا حزناً عليه ...
أهو فى يقظة حقاً ؟ ... ثم ما هذا الذى يرى ... يا للعجب ...
إنها دمعة فضية تترقق فى عينيها الواسعتين كأنها قطرة ندى ...
ولم تتحمل الحسنام ألمها - فيما يبدو - أكثر من ذلك ... فاندفعت
خارجة من الحجرة ، وهى تمسح دمعتهما بأناملها القرمزية الأصداف ،
والممرضة فى أثرها ... ولم يبد المريض حركة ولم يلفظ همسة فقد
أذهله ما رأى عن كل شيء ... ولم يشب إلى رشده ، وتستيقظ له
إرادة ، إلا بعد أن عادت إليه الممرضة وحدها راجية ملحة فى
الرجاء أن يكف عن هذه الأكذوبة ، وأن يسمح لها أن تخبر
الحسنام بالحقيقة ، قبل أن تتخرج الأمور ، ويبلغ إدارة المستشفى
الامر ، فتتعرض هى للبؤاخذة ، ذلك أن « الست » تصر على
استشارة الأطباء ، ويذل كل عطاء لإنقاذه من الموت ، ولم تنتظر
الممرضة رأيه أو جوابه ... وأقبلت عليه نعيته على الاستواء
قليلا ... وتضع الوسادة خلف ظهره ، وجذبت إحدى المجلات

المصورة ودفعت بها إليه ، وأعلنته أنها ذاهبة تخبر « الست »
بالحقيقة ، وتعود بها لتراه وهو في حالته الحقيقية ... وخرجت
عنه وهو مضطجع كالطفل الذى لا إرادة له ولا عزم ... المتقبل
كل ما يجرى له ويفرض عليه ... وأخذ يعث بصفحات المجلة
المصورة بعين زائفة وفكر شارد ... وإذا بصره على الرغم منه
يقع على صورة يعرفها ... عجباً !... إنها صورة للعروس التى رأى
رسمها فى الإطار ... نعم ... هى بعينها فى ثياب العرس البيضاء وإلى
جانبا شاب فى ثياب السمرة « الفراك » وتحت الصورة عبارة « قران
بهيج » ... لقد زفت إذن إلى خاطبها الأول ... حسناً فعلت ، إنه
لا يأسف الآن عليها كثيراً ... وأرسل بصره إلى الباب نافذ
الصبر ... معلق الأنفاس ... وإذا الممرضة تدخل وهى تجذب
الحسناء جذباً رقيقاً إلى داخل الحجرة ، وقدمت إليها مقعداً بجوار
السريـر ، وانصرفت فى الحال ... ومرة كل ذلك مرأ خاطفاً ،
فلم يشعر المهندس بالحسناء إلا وهما منفردان وجها لوجه ، ولم يكن
من اليسير أن يجد أحدهما الكلام الذى يبدأ به ... فوقعا أول
الأمر فى صمت عميق محرج ... قطعته الجميلة قائلة ، وكأنما
تنفـس الصعداء :

— أف !... الحمد لله على أنك بخير !... لقد كاد يغمى على

الساعة عندما حسبك تموت ا... .

فررنا إليها وإلى فيها وهي تنطق هذه الكلمات ، وكأنه
لا يصدق أن هذا القول موجه إليه ... ثم تمالك قليلا وقال لها :
- حياتى شيء مهم عندك ؟ ...
- جداً ...

- لا يوجد غير تعليل واحد لكل هذا ، إنى مت حقيقة
وانتقلت إلى جنة الخلد ، وما أنت إلا حورية مكلفة بملاطفتى ...
ولكن .. أين الشجر والثر والكوثر ... ولماذا هذا السرير
والمرضة والمستشفى ...

- لا ... أنت من حسن الحظ حى ... لأنك لو كنت مت
ودخلت جنة الخلد ، كنت أنا دخلت السجن ...
- السجن ؟ وما المناسبة ؟ ...

- آن الأوان أن أعترف لك يا سيدى بجريمتى ... أنا التى
صدمتك بسيارتى ... وإنى بالطبع متأسفة جداً ... واسكنه القدر ...
أقوى منا ومن إرادتنا وتدبيرنا ... كنت مسرعة وهذا خطأ منى
ولاشك ... ولكنى كنت مدفوعة برغبتى فى شراء ثوب حريرى
رأيتة فى الصباح ، وخفت أن تسبقنى إلى شرائه أخرى ... وعندما
حضرت العجالات على جسدك ... لم أفق ومضيت فى السير بعين

السرعة ... لا عن قسوة منى وانقص فى المروءة ... بل عن خوف شديد استحوذ على ... لقد هربت من جسدك الملقى على الأرض كمن يهرب من شبح ... وعدت توأ إلى بيتنا غائبة العقل .. ورأتى والدتى فمالها اضطرابى ، وقصصت عليها ما حدث ، فنصحتنى أن أخبر والدى بكل شيء ... وهو من رجال القضاء ... فلما سمع والدى القصة حار هو الآخر فيما ينبغي عمله .. فإن التبليغ عن هذا الحادث معناه التعرض للحكم إذا مات المصاب ، كما قال لى ، وإذا لم نبليغ فإننا نتحمل تقريب الضمير طول حياتنا ، وإن كرامته كقصاص يمنعه من أن ينصح أحداً ولو كان ابنته بالهرب من العدالة .. وإن حنانه كآب يمنعه كذلك من أن يدفع بابنته الوحيدة إلى السجن ... وانتهى به التفكير إلى أن ترك لى حرية التصرف ... بعد أن أفهمنى كل النتائج المحتملة لهذا الفعل ... وجعل يعنفنى على جنونى فى سرعة القيادة ... ونصحتنى أخيراً أن أتبع حال المصاب على الأقل وأن أعمل على علاجه وانقاذه ... فإنه إذا شفى ان يقع على من العقاب أكثر من غرامة مائة ولذا بادرت أسأل أقسام البوليس عن المصاب فى حادث السيارة عصر ذلك اليوم فى ميدان سايمان باشا ... إلى أن اهتديت إليك ...

وأصغى المهندس إلى حديثها ، وكأنه يهبط رويداً رويداً من

السحاب حتى لاصق التراب ... وما فرغت روايتها ... حتى نظر إليها قائلاً :

— يا لك من مجرمة أئيمة ! ... كسرت ضلعي ، وأضعت خطيبتى ، وبددت أحلامي ! ... وكل هذا لن تعاقبي عليه بأكثر من غرامة مالية ! ...

— لأنك شفيت والحمد لله ! ...

— أنا شفيت ! ... وما قيمة شفائي ؟ ... إن موتى الآن خير من حياتي ... أكل هذا العطف الذى نلته منك ... وهذه الدفعة التى سقطت من عينيك ، وهذا الشحوب الذى بدا عليك لم يكن من أجل ولا خوفاً على ، بل خوفاً على نفسك من الحبس ! ؟ ... اسمعى أيتها الأنسة ... أو الست ... أو الزوجة المزعومة ... الزوجة ؟ ...

— طبعاً ... وماذا تريدن أن يكون ظنهم هنا بسيدة مثلك تعنى هذه العناية برجل مثلى ؟ ... لقد خطر فى بالهم بالضرورة أنك زوجتى ، ولم يخطر فى بالهم أنك قاتلتى ! ...

— لا تقل لى قاتلتك ... فما أنت ذا الآن فى صحة جيدة ...

— كم كنت أتمنى أن أموت لتدخل أنت الحبس ...

— إلى هذا الحد تبغضنى ؟ ...

- هل أبلغت الحكومة أنك أنت الجانية ؟ ...
- لم أبلغ بعد ... لقد رأيت أن أنتظر حتى تشفى ...
- وإذا كنت مت ؟ ...
- كنت ذهبت وقدمت نفسى للبوليس ...
- أأنت واثقة أن القضاء كان يحكم بحبسك فى حالة وفائى من الحادث ؟ ...
- كان ذلك مرجحاً لأنى من أرباب السوابق ...
- أنت ؟ ... من أرباب السوابق ؟ ...
- نعم .. فى حوادث السيارات ... سبق لى أن صدمت حماراً محملاً بالخطب فى طريق عزبتنا فى صيف العام الماضى ، ومنذ ستة أشهر صدمت حماراً آخر يحمل قصباً فى سكة الهرم ...
- حضرتك إخصائية فى صدم الحمير ؟ ...
- ف نظرت إليه وهو مغلف فى أربطته الصحية ... وضحكت ولم يفطن هو إلى « النكتة » وهضى يقول :
- أيتها الجانية ... أنا بصفتى الجنى عليه ، لابد أن يسمع رأى فى جريمته ... هل تريدن حكمى ، أو حكم المحكمة ؟ ...
- حكمك ...
- حكمت عليك بالحبس ...

— تريد حبسى ؟ ...

— فى أحضان الزوجية ...

فنظرت إليه وابتهمت ابتسامة المحكوم عليه الذى رضى
بالحكم وإن يستأنفه أو يناقض فيه ...

* * *

مضى عام على زواجهما ، فأدرك المهندس أن «القدر» حقاً
قد عرف كيف يهديه إلى «طبقه» وشطره ونصفه وزوجته المثلى ...
وقد آمن أن للقدر من الوسائل أحياناً ما لا يخطر على بال البشر ...
وهل كان مثله يتصور أنه سيلقى شريكته يوماً بهذه الطريقة ؟ ...
إن كلمة «النصيب» التى يذكرها الناس دائماً فى بساطة ليست
إلا مظهراً من مظاهر فن «القدر» العجيب فى تدبير مصائر
الآدميين ...

واحتفلاً فى المساء بمرور العام على ذلك الزواج ، فهس فى
أذن زوجته قائلاً :

— كان لابد لحواء أن تأخذ من آدم ضلعاً حتى توجد ،
وكان لابد لك من أن تكسرى لى ضلعاً حتى أجذك ...

كليوباترة وماك

من أسرار الحرب الأخيرة التي لم يكشف بعد عنها النقاب
ما أرويه الآن.. وما من صحيفة في العالم نشرت هذه القصة العربية ،
التي قد تصدم منطق الإنسان في القرن العشرين... ولكن هذا
لا يمنع من أنها وقعت بالفعل... وأرجو أن لا يسألني سائل عن
مصدر علي بها ... فهذا ما أقسمت أن لا أبوح به لأحد ..

كان ذلك في عام ١٩٤٤ ، في جزيرة ما بالحيط الباسيفيكي
اتخذها الجنرال « ماك آرثر » مقراً لقيادته في حربه ضد اليابان
بعد أن اضطر إلى الجلاء عن الفلبين ...

كان المساء جميلاً...والشفق مازال يدمى على صفحة سماء بيضاء
كرداء العروس ، والنسيم يهب رقيقاً من البحر الهادئ النائم ...
وكان « ماك آرثر » جالساً في شرفة مقره بمفرده ، وقد غرق
في مقعد من القماش كمتقاعد الشواطئ ، وأرسل رأسه إلى الوراء
على المسند وراح في شبه إغفاء ... تحت وقر التعب والاجهاد ،
وثقل الأعباء والتعبات ...

لم يمت طويلاً ... فقد استيقظ فجأة على صوت مجاديف تمس
الماء كما يمس المرود الجفن ، وموسيقى تحملها الريح ، وعطو يرتضوع

في الهواء ... ففتح عينيه ، فإذا هو أمام منظر عجيب : سفينة من
سفن العصور القديمة ، تهادى فوق الأمواج مقتربة ... مؤخرتها
من الذهب ، وشرائعها من الأرجوان ، ومجاديفها من الفضة ، تتحرك
على نغم المزمار . وفي مقصورتها امرأة مستلقية على الحرير كأنها
آلهة ، يحرق بين يديها بخور وينتشر عبير ، يلعب بالرؤوس ،
ويسحر النفوس ...

نزلت تلك المرأة من السفينة ، ومشيت وكأنها تخطر في
الهواء ... نحو مركز القيادة ، وهي تقول :

— «مارك أنطوني ، ! ...»

ففرك الجزال الأمر بكى عينيه وهو يقول :

— أنا «ماك أرثر» ! ...

— نعم ... أقصد «ماك أرثر» .. إليك جئت ، وأنت الذي
أريد ...

— من أنت ؟ ...

— أنا كليوباترا ...

ففحصها القائد بنظرة ملياً ... وتأمل ثيابها ودمقسها ودمالجها
ولآلئها .. ثم التفت إلى سفينتها العجيبة ، وهو رأسه باسماً وقال :
— فهمت ، فهمت ... إنما الذي أعجب له هو : كيف استطاعت

هو ليورد أن تعمل في هذه المنطقة الحربية بدون على ؟ ... وكيف حصلت على إذن في إرتياد هذه المياه الممنوعة لإخراج الأفلام التاريخية ؟ ... وداهى السلطات المختصة التي يمكن أن تتحمل هذه المسؤولية دون الإلتجاء إلى رأيي ؟ ... هذه مسألة خطيرة ياسيدتي ، لا يحسن الأعضاء عنها ...

ونهمض ، وعلى بحياه جسد وصرامة ... وأراد دخول مكتبه ليتجرى الأمر فاعترضته الزائرة العظيمة ، ووقفت بجلاها الملكي ، وقالت بصوتها الملائكي :

— قلت لك أنا كليوباترا ، ملكة مصر ... جئت إليه من العالم الآخر ... ولعلمها أول مرة يحدث فيها ذلك ، منذ عرف الناس الحياة وعرفوا الموت ... إن عصركم اليوم عصر تقع فيه أعاجيب ، ولكن الأعجوبة الكبرى هي تمكني من العود إلى الدنيا ... كيف تمكنت ؟ ... هذا ما لا شأن لك ولا لي به ... وأنا لم أحضر لأطلعك على أسرار الموت والحياة ... ولكنني أريد أن تصدقني ... فلافل لك إذن ببساطة كيف تم هذا ، بطريقتكم ولغتكم التي تفهمونها : إننا بعد موتنا فتلاشى روحاً وجسداً كذرات في الفضاء ... على أن المتعذر دائماً هو جمع هذه الذرات ، من الكون ، مرة أخرى في عين الجسد وعين الروح ... لقد استطلعتكم بجهاز

الراديو أن تجمعوا من الفضاء أصواتاً وتنقلوا صوراً ... ولكن أين البوق ذلك الجهاز الذى يجمع ذراتهم المتناثرة ، فى كياناتهم القديم وصورهم الغابرة ؟ ... لا بد أن توجد قوة هائلة تجذب هذه الذرات وتجمعها ... لقد حدثت هذه المعجزة فيما يختص بى ... لقد كنت أنت هذا الجهاز ، أو هذه القوة التى جذبتنى ، بدون أن تشعر أنت أو تعى ، إنك لا تدرك أى شبه بينك وبين حبيبى السابق « مارك أنطونى » ! ...

قالت ذلك ، و « ماك آرثر » يصغى إليها مشدوها ... لكن إرادته قد فارقتة ... يدرك هذا من قرأ « بلوتارك » المؤرخ اليونانى حين وصف كليوباترا ... إنها ، على حد قوله ، لم تكن فى الجمال بالغة ما لم يبلغه غيرها من الجميلات ، ملاحظة وجهها لم تكن وحدها مبعث فتنتها التاريخية ، إنما هو حديثها الذى كان ينفذ فى القلوب كالشوكة ... كان صوتها هو المذوبة ، ولسانها قيثارة متعددة الأوتار ... تعالجهما برشاقة وتمسها بلباقة ، فى مختلف اللغات واللهجات ... إن مقاومة سحر حديث كليوباترا كان هو المستحيل ...

وهمس القائد الأمريكى كالتخاطب نفسه :

— مارك أنطونى ! ...

— نعم ... ما أعجب الشبه بينك وبينه ! ... فى وجهه وأنفه

وقوامه ... ومشيته ... بل ما أشبه دولتك بدولته ... لقد كان
الرومان فاتحي العالم بالسيف ، واليوم الأمريكان هم فاتحو العالم
بالدولار ... كان للرومان مجلس شيوخ و « قيصر » . وللأمريكان
مجلس شيوخ و « روزفلت » ...

* * *

من اللغو أن نطيل ... في البديهي أن نقول : إن « مارك آرثر »
وقع في حب « كليوباترا » .. وهل دنا منها أحد دون أن يسقط
في أتون غرامها ؟ ... ومنذ ذلك المساء وهما لا يفترقان ... كانت
معه كما كانت مع « مارك أنطوني » في أول حبهما ... لقد قيل
إنها و « قائد الرومان » كانا متلازمين الليل والنهار . . . كانا معاً
يهيمان في الطرقات أحياناً يرحان ويلهوان ... هي متخفية في زى
وصيفة وهو في زى وصيف ... أما اليوم فإنها تلازم القائد
الأمريكي في زى « ضابطة » من المجندات ، وقد ألحقت بمكتبته ...
وهو وضع طبيعي ... وهل يشير التفات أحد أن يكون للجنرال
الأمريكي « سكرتيرة » مجندة في ردائها العسكري ؟ ...

لم يكن شيء يحسب صفو حبهما غير شبح ... هو دائماً عين
الشبح : الزوجة ...

فيما مضى كانت هي « فولفيا » زوجة « مارك أنطوني » التي

هجرها في إيطاليا . . . واليوم هي مسز « ماك آرثر » التي تركها
في أمريكا ...

يا له حقاً من تشابه عجيب ! ...

كلاهما زوج وأب ، بعيد عن بلاده . . . وكلاهما يحزن
كليوباتراً ويزعجها كلها فكر في العودة إلى امرأته وأولاده ...
ولم تلبث مخاوفهما أن تحققت ... فها هي ذى المعركة الانتخابية
تقوم في أمريكا لاختيار « الرئيس » ورشح « روزفلت » للمرة
الرابعة ... ولكن نفرأ قاموا من جهة أخرى يرشحون أمامه
« ماك آرثر » ...

هنا نهضت « كليوباترا » تدراً عن حبها الخطر ، فاستعانت
بقوة سحرها ونفاذ قننتها لتصرف « القائد الأمريكي » عن هذه
الفكرة ، كما صرفت من قبل « القائد الروماني » عن الذهاب
للمحاربة قيصر ...

لعل هذا هو السر الحقيقي في انسحاب « ماك آرثر » من معركة
الانتخابات الأمريكية ! ...

وهكذا ظفرت « كليوباترا » باستبقاء حبيبها إلى جانبها وأنصته
عن زوجته ووطنه وذريه ...

على أنها كانت هذه المرة ذات فال حسن وأثر طيب على القائد

الأمريكي... فقد حفزه قربها وألمهه، فتوالت انتصاراته... وصار
يثب من جزيرة إلى جزيرة خلف اليابانيين... يطردهم منها ويستولى
عليها... وهو لا يرهب شيئاً إلا أن يبدو مندرجاً أمام
«كليوباترا»... حتى تم له الفوز الأخير... واستسلمت
اليابان... ودخل «ماك آرثر» طوكيو دخول الفاتحين...

ومرت أيام لم ير القائد أجمل منها... وفي ذات عصر، وقفت
«كليوباترا» بجواره وأرسلت بصرها إلى البحر، وقالت:

— أتدري يا «مارك» أقصد يا «ماك»... ما الذى يحول

في خاطري؟...

— ماذا يا «كليو»؟...

— أتذكر يوم جئت إليك تحملنى تلك السفينة الجميلة؟...
القد كانت هى عين السفينة التى ذهبت فيها إلى «مارك» فى
«طوروس» وقد استدعانى لأقدم حساباً عما نسيه إلى من
معاونتى لأعدائه... ولقد أحب أحداً الآخر بعدئذ... ولكن
برغم ذلك... أى إذلال وهوان أن يستدعى رأس متوج ليثل
أمام قائد منتصر!...

ما قولك يا «ماك» لو استدعيت امبراطور اليابان ليثل

بين يديك؟...

فأجفل « ماك آرثر » قليلاً لهذه الفكرة ... إنه لا يجهل
خطورة الإقدام على هذا العمل الجرىء ... إن « الميكادو » شبه
إله في قومه ...

وانظر إلى حبيبتيه متردداً متوجساً ... ولكنهما استقبلت عينييه
بنظرة منها أسكرته ... فأحس قوة تدب في قلبه دبيب الخمر ... وقال :
— سأفعل ! ... سأفعل يا كيو ! ...

ولم تمض أيام حتى كان الإمبراطور بقبضته العالية الرسمية السوداء ،
مائلاً أمام « ماك آرثر » في مقر قيادته وعو بقميصه الكاكي ...
واهتز العالم لهذا الحادث ! ...

واستمرت بعد ذلك اللحظات السعيدة ، يرتع في ظلها
الحبيبان ، وبضحكان ويلعبان ...

وخرجاً ذات يوم للصيد في خليج طوكيو ... وكاد النهار يولي
و « ماك آرثر » لم يظفر بسمكة ... وخجل من الهزيمة أمام حبيبتيه
العظيمة ، فغافلها واتفق مع أحسد الصيادين الحاضرين ، على أن
يفوص في المساء ويضع في سنارته سمكة من صيده الطازج ، ونفذ
الاتفاق ، وجذب القائد سنارته ، فإذا بها سمكة كبيرة ، أراها لحبيبتيه
مزهواً ... واسكن كليوباترا لم تسكن بالغافلة ... وأعدت للغد
عدتها ... واتفقت هي الأخرى مع الصياد سراً ... فلما جاء الغد ،

وضع دماك، سنارته في الماء إلى أن شعر بشقلها فجذبها ... فإذا بها :
سردينة كبيرة مملحة مما يباع في صناديق البقالين ...
ارتفعت عندئذ قهقهة الحاضرين ... وكاد القائد الأمريكى
يغضب ، لولا قول كليوباترا البارع اللبق :
— أيها القائد الظافر ! ... مالك وصيد السمك ؟ ... اتركه
لنا نحن العاديين والعاديات ! ... أما أنت فصيدك الجزر والمدن
والملوك والأمم براطوريات ! ...
ما من أكليل غار يعدل هذا الإطراء من فم « كليوباترا » ! ...
عند ذاك ألقى « دماك » بصعاً صيده ، وأقبل عليها وقلبه يقطر
حباً ، وهو يهمس :
— يا عزيزتى كليو ! ...

* * *

لكن الحب شديد النهم ... إنه يأكل كل شىء حتى نفسه أنه
لا يقنع أبداً ... ولا يعرف نهاية ولا حداً ... لقد جعل
« دماك آرثر » همه الأكبر بعدئذ مطالعة كتب المؤرخين ، اليونان
واللاتين ، الذين كتبوا عن كليوباترا ... وخرج من هذه القراءة
بقلب نهشته الغيرة ... لقد تبين له أن أكثر كلمات حبيبته التى
تساجيه بها وتخلب ابيه ، سبق أن قالتها بنصها ولفظها للمارك أنطونى ! ...

ودخلت دكليوباترا ، عليه يوما ، فأبهرت في يده كتاب
« بلوتارك » مفتوحا على فصل يصف أخبارها ... ففهمت لساعتها
ما يجيش في صدر حبيبها المقطب الجبين ، فابتدرته قائلة :

— أرجوك أن لا تصدق ما يهرف به هؤلاء المؤرخون ...

— كيف لا أصدق والعبارات التي أوردوها هي عين
عبارتك التي أسمعها اليوم من شفقتك ؟ ...

— اسمع يا مارك ...

— من فضلك ... أنا اسمي مارك ... ماك ... إلى متى تظنين

تخلطين بيني وبين الآخر ؟ ...

— ثقي أني لا أخطئ ... وإنما لسانى يغلط ... هذا طبيعي ،

أولا تريد للسانى أن يخطئ وهو الذى تعود ذلك الاسم منذ
عشرين قرناً ...

— إياك بعد الآن أن تمزجى بيننا ... تذكرى دائماً أنك

رأيتك مندهراً ... أما أنا فإنك رأيتنى منتصراً ...

— نعم ... لقد كان حبي له شؤماً عليه ... أما حبي لك ،

فكما ترى ، سعيد الطالع ... ولولاى لما انتصرت ... يحدرك
أنت أن تذكر دائماً أنى عدت إلى الحياة من أجلك ... هذا ما لم

يحدث لبشر غيرك ! ...

سكن عندئذ ناثر القائد الأمريكى واستقرت نفسه ... ومضت أيام وهو هادىء مطمئن راض عن حبه ... ولكن الحب لا يرضى ولا يطمئن ... لأنه إذا فعل ذلك نام ، وهو كالقلب إذا نام مات ... ورنث فى رأس «ماك آرثر» عبارتها الأخيرة : «هذا مالم يحدث لبشر غيرك» ١... فردد مخاطباً نفسه ذات ليلة :

— حقيقة ... هذا مالم يحدث من قبل ... هذا هو المجد الذى لم يبلغه بشر ... كليوباترا تعود إلى الحياة من أجل ... ولكن من يعلم ذلك حتى الآن ؟ ... لا أحد سوى ... وما قيمة ذلك إذن ؟ ... ترى ماذا يحدث لو أذيع هذا الخبر العجيب ، ونشر فى صحف الدنيا : «كليوباترا بعثت لماك آرثر» ١١...

تلك هى المعجزة التى تتضاءل بالقياس إليها ألف أعجوبة مثل القنبلة الذرية ١...

وتملكته هذه الفكرة ، واستحوذت عليه الليالى الطوال ... لابد أن يكشف أمر كليوباترا للعالم المتحضر ... ولم يتمالك ؛ ففانحما برغبته قائلاً :

— اسمعى يا كليو ١ ...

— إني مصغية يا ماك ...

— أخبرينى .. هل فكرت فى المستقبل ... أعنى فى مستقبلك ؟ ...

— مستقبلى ١٩... —

— نعم ... أتظنين هكذا دائماً ضابطة مجنّدة في غمار المجنّندات
لا يدرى بك أحد؟ ... أنت أجمل وأشهر ملكات التاريخ... تهبطين
الدنيا ولا تشعر بك الدنيا؟ ... تصورى ، لو أذيع أمر وجودك ،
أى أقواس نصر تقام لك في كل مكان ، وأنا بجوارك فخور بك ...
لأنهم في أمريكا يحسدون من يقترون يا حدى النييلات ، فإذا هم
قائلون يوم يرون «ماك آرثر» وفي ذِـاعه «كليوباترا» أبهى
الملوكات وألمع المتوجات ...

— أيها الأمريكي ، أهذا هو الذى يشغل بالك الآن ؟ ...

أهذا هو مصير حبنا ؟ ... تريد أن تستخدمه أداة إعلان ؟ ...

— بل أريد أن يكرمك هذا العصر ...

— يكرمى ؟ ... أتدرى كيف سيكون تكريمى ؟ ... إنى أعرف

ما ينتظرنى فى بلدك ... سأكون ملهاة للسياح ، يأتون لمشاهدتى من
أطراف الأرض ، ومادة للصحفيين والمراسلين لا تنضب ،
وموضوعا للنساء فى الصالونات والحفلات والمسارح والسباق ،
يثرن الإشاعات حولى ، وينهشن بألسنتهن لى ، ويتضاكن
ويتغامزن قائلات : « أهذه هى التى قال التاريخ إنها فتنت القواد
هو القياصرة ؟ ... ماذا فيها من حسن وسحر وإغراء يثير الرجال ؟ ... »

— بل ثقي أنك ستكونين أعظم امرأة في زماننا هذا ...
— أعظم امرأة ثروة ... هذا محتمل جداً وجائز جداً ... فإن
شركات الأزياء الكبرى في أمريكا ستزاحم عارضة على أبهى
الأجور لأروج لها أثوابها . . . وشركات الزينة والجوارب ،
والعطور ، والصابون ، وكبار الحلاقين ، ودور النشر ، والمصودين ،
ورجال الصناعة والمال والأعمال . . . إلخ . ولاتنس شركات
هوليوود السينمائية ... فمن المؤكد أنها ستتهافت طالبة إلى القيام
بدور «كليوباترا» في نظائر ، بلغ لم يدفع قط لإنسان ، وإن مثل
ذلك عن مسارح برودواي الشهيرة ، ومن يدري ما ستعرض
على أيضاً من عمل ومن مال ...

— طبعي جداً أن يكون لك مال كثير وثروة ضخمة ، لنقتنى
الجواهر والنفائس ، ونملك في كل قارة أكثر من قصر . وفي كل بحر
أكثر من يacht ، وتعيشي حياة القرف الخليفة بك وباسمك العظيم ...
— اسمي العظيم ... حقاً سيكون كذلك ، يوم أراه منقوشاً
بتوقيع الكريم على كل عاية بودرة وكل زجاجة كلونيا وأحمر
شفاه ، وصبغة أظافر ... هذا هو عصرك وبلدك ... وهذا هو
حبك ... وهذا هو كل مستقبل ! ...

وقامت غاضبة ، وفي عينيها دموع ، أخفتها بأصبعها «

وانصرفت مسرعة ، فنهض دماك ، خلفها وهو يصبح بها :

— كليو ... كليو ... إني أمرح ! ...

— لا ... أنت لا تمزح ... إني أقرأ ما في أعماق نفسك ... إنك

لم تستطع طويلا أن تقنع بحبي لك في زى ضابطة ... أنت تريد

أن أحبك أمام الدنيا في ثياب دكليو باتراء وإن صبرت اليوم فلن

تصبر غدا ... إني أعرف غرورك ! ...

— لن أقدم أبداً على أمر يغضبك ...

وبرق عندئذ في رأسها خاطر ، فقالت :

— ومع ذلك ... فقد فاتنا شيء خطير ... ليس في مقدورك

أن تكشف أمرى ... إن ذلك يعرضك لكارثة :

هب أنك أقدمت وأعلنت حقيقة للناس ... أتعلم ما الذي

يحدث ؟ ...

— ماذا ؟ ...

— يحدث لك ما حدث لكل من أعلن مثل هذا الأمر من

قبلك : إن يصدقك الناس ... فإذا أصررت وماريت وجادلت

تقادرك بكل بساطة إلى مستشقى المجازيب ...

— ماذا تقولين ؟ ...

— أقول الحقيقة ... لقد كذبت عليك يوم قلت إن ظهورى

لك لم يحدث مثله من قبل لبشر ... الواقع أن كثيرين من الموتى
يظهرون الأحياء ... وأن كثيرين من الأحياء يعيشون ويختاطون
بالموتى ... إن الحاجز بين العالمين غير موجود ... إنه حاجز
وهى ، هو العقل الذى يسدل ذلك الستار بين هذين العالمين ...
ولسكن من الداس من يخرج أحياءاً على سلطان العقل ، فيرفع في
الحال الستار لنفوسهم ويصرون ما وراءه ويمتزجون بمن خلفه ...
فإذا احتفظوا بهذا السر لأنفسهم سلبوا ... أما إذا باحوا به فقد
اتهموا بالجنون ... ثقب أن كثيرين قد ظهرت لهم « حتشبست »
و « نفر تيتى » و « سميراميس » كما ظهرت أنا لك ... وعاشوا
متحابين آمنين ما بقى السر مكتوما ... أما الذين قفدوا ضبط
أعصابهم فأعلنوا ذلك للناس ، فهم أولئك الذين تراهم يعمرن
مصحات الأمراض العصبية والعقلية ...

— ما أظلم الناس ! ...

— بل ما أظلم العقل ! .. هو الحاكم المسيطر فى حياة البشر ،
الذى يحجب عنهم نصف الوجود ، فمن جرؤ وزعه ليرى
خارجة ... لم يقل الناس إنه تحرر ، بل قالوا إنه مرض ... ذلك
أن هذا الحاكم الجبار - ككل طاغية - لا يسمى الخارج عليه متحرراً ،
بل يسميه مريضاً يستحق العلاج والحبس ...

— من حسن الحظ أن أمريكا بلد الحرية ، ونحن فيها نكره
الطغاة والمسيطرين ... وإنك ستزين للحرية تمثالا عظيما عند مدخل
نيويورك ... فاعلمنى يا كليو ، ولا تخاف شيئا ...
— حقاً ... إنها الحرية في تمثال ، ولا أكثر من تمثال . . .
ستبوح للناس إذن ؟ ...

— لا ... لا ... لم أقل ذلك ...
— أرى في عينيك ...

— إذا وافقت أنت ... ومن يدري ؟ ... قد توافقين يوما ...
— سترى إذن ما أصنع ...

* * *

مرت أسابيع ... وإذا صحفى ذو شأن يأتى من نيويورك
ليجرب حديثاً مع « ماك آرثر » ...
وطالعت « كليوباترا » في وجه القائد الأمريكى ما رآها وأثار
قلقها ... وأدركت أنه قد لا يستشيرها ، ورجحت أن لسانه
سينطلق ... وأنه قد يضمها أمام الأمر الواقع وجهاً لوجه ...
ويقدمها للصحنى قائلاً :

— « الملكة كليوباترا ، أو « مسز كليوباترا ، ... !
لم تظن هذه الفكرة ... وأسرعت من فورها تبحث عن

ثعبان ...

لقد جربت الموت من عضته... إنه لا يحدث تشنجا ولا تمزقا،
بل يفرق الإنسان في شبه ناس هادىء يتمنى من يقع فيه أن
لا يصحو منه ... إلى أن تضعف حواسه ويموت موتا لذيذا ...
غير أنها ذكرت وقتئذ أن «الاسبيرين» يحدث اليوم هين
الأثر ... فاضطجعت على فراشها وهى بملابس الضابطة... فابتلعت
أنبوبتين ...

وعلم «ماك» بالحادث ... فدخل عليها مسرعا ، فوجدها في
النزع الأخير ... وانحنى عليها متفجعا ، وهمس في أذنها :
— كليو ... كليو ... ماذا صنعت ؟ ! ...

فقالت وهى تحتضر :

— هل أخبرت الصحفي ؟ ...

— كلا يا كليو ...

— ماك ... احفظ سرى في قلبك وحده ! ...

وأسلت الروح ... للمرة الثانية ... وربما للمرة الثالثة أو
العاشرة ... أو المائة ... لا أحد يدري ...

ظل هذا السر مكتوماً بالفعل زمناً ... إلى أن مرض
«ماك آرثر» بحمى خفيفة ، فجعل يهذى في الليل ، ويقول للممرضة

القائمة على فراشه :

— كليو ... كليو ... هل عدت إلى الحياة مرة أخرى
من أجل ١؟ ...

وحار جميع من حوله في أمر « كليو » هذه ... فهم لم يسمعوا
« الجنرال » ، يلفظ هذا الاسم أمامهم من قبل ...

وتساءلوا من تكون ؟ .. أتراها تلك الضابطة « مسز كليتون »
سكرتيرته التي أمضها الأرق ، فماتت منتحرة بالاسبيرين ؟ ...

هكذا قال من أخذ الأمور بظواهرها ... أما الحقيقة التي لم
تنشر حتى الآن ، فهي التي رويت هنا بهذا فيرها ... ولمن يرتاب
أن يلجأ إلى الجنرال « ماك آرثر » نفسه ... وهو لن يستطيع أن
ينفي الواقعة ...

موقف حرج

حدث ذات صباح أن كنت جالساً على إفريز المقهى المعتاد
بحوار صديقي حسن « بك » ... وهو ليس من أصحاب الألقاب
ولا حملة الرتب ، واسكن هكذا نناديه ، لأن حب المظهر شيء في
دمه ، والرغبة في « التظاهر » طبع فيه ...
مر بي في ذلك اليوم مصادفة ، فأجلسته وأكرمه ، ولم أكن
رأيتَه منذ شهور ... وأمرت له بفنجان من القهوة ... وأخذنا في
الحديث ... وإذا شخص يدنو مني مبتسماً متردداً ، فالتفت إليه
وبادرتَه :

— من حضرتك ؟ ...

— أنا اممي ... مرقص ...

— طلباتك ؟ ...

فقال على أذني هامساً :

— هل تقبل أن تسكب خمسين قرشاً في اليوم ، وأنت

جالس في مكانك هذا ، بدون أن تصنع شيئاً ؟ ...

— بالطبع ... لا موجب للرفض ...

فلتها على البديهة ، كأنها من وحي الشعراء .

فبادر الرجل يقول :

— إذن اتفقنا ... وهذه دفعة على الحساب ...
وأخرج بالفعل ورقة مالية من فئة الخمسين قرشاً ، دسها في
كفي ، فوضعتها على الفور في جيبى ، وأنا أقول :
— اتفقنا ...

وانصرفت عنه إلى استئناف الحديث الذى انقطع بينى وبين
«حسن» بك ، ولكن الرجل حدجنى بنظرة شديدة وقال :
— ألا تسألنى عن أصل الموضوع ١؟ ...

— أى موضوع ؟ ...

— لماذا إذن أعطيك هذه النقود ؟ ...

— وهل أنا أعرف ؟ ... كل معلوماتى فى الأمر ، أنه قد تم
بيننا اتفاق ... ألم يحصل بيننا الآن اتفاق ؟ ... ألم يقع عرض
وقبول ؟ .. أما من جهتى فقد قبلت وانتهى الأمر .. بهذه المناسبة
أحب أن أستفسر منك لماذا تعطينى هذا المبلغ ؟ ...

— أخيراً ... اسمع يا سيدى ... المسألة بسيطة ... أنت تجلس
هنا دائماً تراقب المارة فى غير شيء ، فلن يكلفك جهداً أن تراقب
سيدة يقال إنها تتردد على هذه العمارة ... فتعرف لنا فى أى ساعة
بالضبط تدخل ، وفى أى ساعة تخرج ؟ ...

- وما شأنك بهذه السيدة ؟ ...
- لا شأن لى بها على الاطلاق ، ولم أرها قط ...
- عجباً !... وما الداعى إذن لأن تجعلنى «شرلوك هولمز» ،
فى مسألة لا تعنيك ولا تعنينى ؟ ...
- فتنحى الرجل ثم قال :
- فلتتكلم بهراحة... لا أحسن من الصدق والصرامة.. أنا
فى الحقيقة المكلف بهذه المراقبة فى نظير مبلغ جنينه ، ولكنى مشغول
بعمل آخر ، وليس لى الوقت الذى يمكننى من أداء هذه المهمة ...
ففكرت فى أن أستأجر من الباطن ، وتقسام المبلغ ..
- عظيم يا مرقص أفندى... أنت فى الحقيقة هو الذى لا يصنع
شيئاً ويتقاضى خمسين قرشاً ...
- وأنت أيضاً لا تصنع شيئاً ...
- كيف تقول ذلك يا مرقص أفندى ؟... أنا الذى سأقوم
بكل المهمة ...
- بالاختصار تريد أن أنزل لك عن جزء من حصتى ؟ ...
- فليكن ما تريد ... أنا لا أحب أن أغضبك ... إليك عشرة
قروش أخرى ...
- خمسة وعشرين من فضلك !...

— تريد أن تأخذ ثلاثة أرباع الجنيه ، وأنا الربع ؟...

— هكذا العدل ...

فنفخ الرجل غيظاً ... ولكن لم يجد من القبول بدأ ... فأخرج من جيبه فرق المبلغ ، وفقدني إياه دون أن ينبس بحرف ... فوضعت النقود في جيبى ووعدته خيراً ، وانصرفت عنه إلى محادثة جليسى ... ولكن الرجل لم ينصرف ، ودنا منى يقول :

— حضرتك لم تسألنى عن السيدة ...

— أى سيدة ؟ ...

— التى ستراقبها ... كيف ستقوم بمراقبتها وأنت لم تعرف منى أوصافها ؟...

— حقيقة ... غاب عن فطنتى ذلك ... اذكر لى أوصافها ...

— خير من هذا أن أريك صورتها ، لتستطيع ملاحظتها فى رأسك جيداً ... إليك الصورة ... انظر ...

وأخرج من محفظة جيبه صورة فوتوغرافية لامرأة مليحة . أطلعنى عليها بخذر وهى فى يده ... فقلت له :

— هل تسمح لى أن أحتفظ بالصورة ؟ ...

— ليس هذا من المستحسن ، لأنى وعدت أن أحرص عليها .

ولا أسلمها لأحد ...

— ومن الذى أعطاك إياها ؟ ...

— لا يا سيدى ، هذه أسرار خاصة ، لا يجوز لنا الخوض فيها ... هذا لا يعنيننا ... فلنعمل فى حدود التكليف ، ولا دخل لنا فى الباقي ...

— أموزوجها ؟ ...

— لا أظن ...

— لعله خليلها ؟ ...

— ربما ، ..

— خليلها يشك فى سيرها ويفار على سلوكها ١٩ ...

— فراستك فى محلها ... على كل حال هذا باب أنصحك ألا تفتحه أو تفتش خلفه ... أسرار العائلات وخفايا البيوت يجب أن تكون عندنا فى الحفظ والصون ...

— مفهوم ، مفهوم ...

— والآن ... أنا معتمد عليك ...

— اطمئن . فقط لا أخفى عنك أن ذاكرتى ضعيفة ولا يعتمد

عليها ، فمن مصلحة العمل أن تترك لى الصورة ، ولو ليوم واحد ، أرجع إليها وأطابق حتى لا يحدث لبس أو غلط ... إن السيدات الممارات كثيرات ... ومن الصعب على مثلى أن يقرز هذه من تلك ...

ففكر الرجل لحظة ، وهرش رأسه قليلاً ثم مدلى يده
بالصورة وهو يقول : « لا بأس ... أبقها معك اليوم ، وأوصاني
بالمحافظة عليها لحين ردها إليّ في الغد ...

وانصرف مرتعص أفندي مشيعاً بعبارات التجلة والاحترام ،
وما كاد يتخفى عن بصرى ، حتى ملكت على جليسى حسن بك
وقصصت عليه القصة من أولها إلى آخرها - مع حذف مسألة الخمسة
والسبعين قرشاً بالطبع - وختمت الكلام بقولى :

— أنت تعرف أن غفلى أكبر من فطلى ، وأن سهوى أكثر
من صحوى ، أما أنت فكثير الفطنة ، شديد النظطة ، فما رأيك لو
قمت عنى بهذه المهمة ... وألقيت بالك إلى كل سيدة تدخل العمارة
أو تخرج منها ، وتطابق أوصافها على الصورة التى سأطلمك عليها
الآن ؟ ... على أنى قبل كل شيء أحب أن أصارحك بأن هذا
عمل بأجر ...

فضحك حسن بك وقال :

— لا عليك ... إننى سأقوم به لوجه الله ...

— لا ياسيدى الفاضل ... الشغل شغل ... لا يوجد شيء اسمه
لوجه الله ... وهل تظن وجه الله يرى بلا ثمن ؟ ... هذا التعبير خطأ
فى خطأ ... ولست أدري من ابتدعه ... إن وجه الله لا يشاهد بالمجان ،

بل بمصروفات ... وإليك البيان : لابد من دفع صدقة وزكاة ،
ونذر ، وفداء ، وكفارة ، ونفقات حج ، وتكاليف زيارة ، وإغاثة
ملموف ، والتضحية في العيد بخروف .. إلى آخر تلك المبالغ التي
لو جمعناها لكان الحاصل رقماً لا يستهان به ... فدع فكرة التبرع
وتناول أجر عملك طبقاً للأصول المعمول بها في جميع الأحوال ..
— أمرك ... أنقلني الأجر إذن ...

— سأدفع لك ثمن فنجان القهوة ... أتعبل ؟ ...

— قبلت ...

قالها راضياً مغتبطاً ، ومد يده ليتناول من يدى الصورة ...
فقلت له :

— مهلاً ... يجب أن تردها إلى قبل قيامك ... فقد وعدت أن
أردها إلى الرجل غداً ...

فقال بابتسامة بريئة :

— طبعاً ... وما الداعي لاحتفاظي بها طويلاً ؟ ...

فوضعتها في كفه ... فرفعها إلى عينيه باسماءً بغير اكتراث ...
ولكن لم يكمد بصره يقع عليها حتى امتقع لونه ، وارتجفت
بداه ، وارتعشت شفتاه ... فهالني أمره . فقلت له :
— حسن بك ... مالك ؟ ...

فلم يحبب ... وخيل إلى أن أذنه لم تعد تسمع ... وجمدت عيناه
على الصورة وتصبب العرق من جبينه ... فمزته يدي قائلاً :
— مالك يا حسن بك ؟ ... هل ... هل تعرفها ؟ ...
فقال بصوت ميت ينشر من قبر :

— كيف لا أعرفها وهي ... زوجتي ؟ ...
وانتفض الرجل انتفاضة خلت روحه قد خرجت معها ،
ورثب من مقعده ، وانطلق في الشارع يعدو كالجنون ... ولم يلبث
أن غاب عن نظري الشارد ، وفكرى الذاهل ... وكدت أصبح
في أثره :

— الصورة ... الصورة ...

ولكنني تذكرت فجأة كارثته ... وأدركت أنها له ... وأنه
أحق أهل الأرض بحملها والاحتفاظ بها ... فلنكت نفسي ...
وثاب إلى رشدي قليلاً قليلاً فلنعت يومى ... ولنعت مرقص
أفندى ... ولنعت الخمسة والسبعين قرشا التي خسرت من أجلها
صديقي ، وخسر اصدیق زوجته ، وخسرت الزوجة خليلها ...
ولو كنت أعلم أن المهمة ستؤدى إلى هذه الفواجع كلها ، لطالبت
مرقص أفندى بما لا يقل عن خمسة جنيهات ...

مراكب الشمس

(١)

رقدت زوجة فرعون على فراشها المملوكى تستقبل الموت ، ولم
تمكن عيناها المنطفئتان من مجئتين إلى زوجها الحزين بجوارها
ولا إلى وصيفتها الواجمة ... بل إلى حياتها هى ... إلى ماضيها ...
ويا له من ماضٍ قارع على قصره ... وبإلها من حياة فائرة فقيرة
على الرغم مما يحف بها من أبهة وثراء ... إنها تموت وهى فى ربيع
العمر... ما أجمل يوم صادفته على الأرض، حتى تستطيع الساعة أن
تبكيه بقلبها الذى لم يبق أمامه غير بضعة نبضات ؟ أما دمع العين
فقد جف مع نبع الحياة التى قهرها المرض ، ما هو أجمل يوم لها
فى عمرها الذى لم يتجاوز الرابعة والعشرين ؟ ... أنهو يوم زُفَّت
إلى زوجها وأخوها... هذا الفرعون الشاب الواقف عند رأسها ؟ ...
إنه أخوها من أبيها وأمها ... معه نشأت منذ الطفولة ... وهى
تجبه ولا شك ، ولكن ... لا ... إنها تعرف الآن أن هذا ليس
هو الحب الذى ينبض له القلب ... وهل نبض قلبها مرة ؟ ...
نعم ... مرة واحدة ... ابتفض وأضاء وانطفأ ... كاختلاجة
الشمعة الأخيرة ... تاركا حياتها بعد ذلك فى الظلام ، إنها تذكر

تلك اللحظة ... كان مساء رقيق النسيمات في يوم من أيام الربيع
الماضى ... خرجت إلى النزهة في النيل ، وقد أعدت القوارب
الملكية ، وأحاطت بها الجوارى بالدفوف والمزامير وآلات
العزف ... فأقبل الشعب في جموعه لتحية الملكة الجميلة ... وإذا
هى تشعر بجأفة بعينين تنفذان من بين سواد الشعب كأنهما شهابان
ملتهبان ، لمعا سريعا وسقطا في هوة قلبها الفارغ ... من صاحب
هاتين العينين ؟ ... ولماذا حدق في وجهها هذا التحديق ؟ ... ولماذا
ارتجفت لظراته ؟ ... كل ما تعلم هو أن الحراس أبعده عن
طريقها ، وأنها سارت بعد ذلك على غير هدى ... تلك هى الخليعة
الأولى والأخيرة لهذا القلب الملكى ... أما الآن فإذا ينتظرها ؟ ...
نزهة أخرى في قارب آخر ... مركب الشمس ... نعم ... إنهم
ولا شك قد فرغوا من صنعه لها وإعداده ... وعما قليل تحنط
ويلقى جثمانها في تابوت مزخرف ويوضع في قبر سرى ، ...
أما روحها فيتلقاه الكاهن الأكبر ، ويحمله إلى مركب الشمس ،
بين ترائيل الكهنة وصلواتهم ... ثم يلفظ كلماته السحرية فيرتفع
المركب بالروح إلى الفضاء نحو أبواب السماء الأربعة والعشرين ...
هذا ما عرفته يوم مات أبوها الفرعون الكبير ، كات في الرابعة
عشرة من عمرها ، لا تدرك كثيرا عما يجرى حولها ، ولكنها

رأت تلك المراسيم . . . وسألت يومئذ كبير الكهان بسذاجة
الطفولة بعد أن فرغ من عمله :

— هل ارتفع المركب بروح أنى إلى الفضاء ؟ ...
فقال الكاهن :

— نعم ... وهو الآن يسبح في شعاع الشمس ، وتضرب
مجاديفه النور المتدفق كالأمواج ، على نغم الأغاني والأهازيج ...
فالت الطفلة وهى تنظر إلى مركب الشمس بحشبه المصنوع
من شجر الآرز :

— ولكن المركب فى مكانه لم يتحرك ! ...
هأجاب الكاهن :

— روحه هو الذى تحرك ... حاملا روح أريك ...
فسألت الطفلة :

— وما هو الروح ؟ ...
فقال الكاهن :

— هو أنت بغير ردائك الجسدى ! ...

ولم يدع لها فرصة سؤاله بعد ذلك ... كأنما هو قد ضاق
بالحديث مع الأطفال فى هذه الشئون ... فانصرف سريعا .
وتركها تسأل نفسها عما لم تفهم ... وهيات أن تفهم ! ...

وهي ذى ... الآن في موضع أبيها ... وبعد برهة يأتي نفس هذا الكاهن ويلفظ كلامه السحرية ويعلن أن روحها قد حملته مركب الشمس ، ساجداً به في أمواج النور ... وإن يجد بعدئذ من يلقى عليه أسئلة ... لأن السؤال الأخير الذي لفظته شفاتها وهي تملظ آخر أنفاس الحياة ، وهو ما لن يجيبها عنه أحد ، هو :
— لماذا ، ولما خفق قلبها تلك الخفقة في مساء ذلك اليوم من أيام الربيع ؟ ...

(٢)

كان صانع مركب الشمس الذي سيجمل روحها إلى السماء ، قد فرغ من عمله ، وجاءت جماعة من الكهنة فحملوا المركب إلى حيث تجرى عليه الطقوس ... وألقى الصانع نظرة أخيرة على مركبه من عينيهِ النافذتين ، ثم مضى إلى حانة نبيذ اعتاد أن يلتقي فيها برفاقه ... دخل الحان رارتى إلى جوار صديقه ناحت التماثيل ، دون أن ينبس بحرف ... كانا صديقين قديمين ... جمع بينهما الصبا ... وربط بين قلبيهما حادث لا ينساه المثال ؛ فقد هبط النيل يوماً ليأتي ببعض الطمي ، ففاجأه تماسيح كاد يفترسه ، ولم يعامله صديقه النجار بضربة من سكينته . معرضاً حياته للخطر . كان كل منهما موضع سر الآخر ... و يوم أحب المثال وصيفة الملكة ،

لم يتردد في إحاطة صديقه بكل التفاصيل ... قال له إنه صادفها
مرات يوم كان مكلفاً بنحت بعض التماثيل لفرعون ، وإن الأمر
بينهما انتهى بما يشبه الخطابة ، لولا مرض الملكة ...
أما صانع مركب الشمس فكان في صدره سر ، لم يجز أن
يروح به لصديقه ولا لخلق ... إلى أن كان ذلك اليوم ...
جلس صامتاً ، فالتفت إليه صديقه المثال ، وقد طرح من يده
القدس :

— أراك تبكى ! ...

— أترى في عيني دموعاً ؟ ...

— ليس في عينيك ...

قالها المثال بنبرة من يؤكد أنه أعرف الناس بما في أعماق
صديقه ... وصمت الاثنان لحظة ... وعاد المثال إلى قدحه ، فجرع
منه جرعة ... ثم قال لصديقه :

— إنك تخفي عني سرأ ...

فأجاب صانع المراكب بغير مقاومة :

— نعم ...

— لماذا ؟ ...

— لأنه جنون ...

- تكلم ا... إلى صديقك الوحيد ...
فأطرق صانع المراكب هنيئة . . . ونظر إلى وجه صديقه
ملياً ... ثم عاد إلى الإطراق ... فقال له المثال :
— تخفى عني ا... أأتخاف مني ؟ ...
— بل أخاف عليك ... أخاف أن تفجع ...
— لا تخف ... تكلم ا...
فتجلد النجار وتحامل وهمس :
— أحبيتها ... ولم أزل أحبها ... وسأحبها دائماً ...
— من هي ؟ ...
— الملكة . . .
فمكاد القدح يسقط من يد المثال .. ولفظ من شفيتين ترتجفان :
— ماذا تقول ؟ ...
— ألم أقل لك إنه جنون ...
أطلقها مع ضحكة صغيرة كضحك الخبوليين ، جمعت صديقه
المثال ينظر إليه فاحصاً وقد سرت في جسمه رعدة ... ولكنه
تماسك وسأله :
— ومتى رأيته ؟ ...
فهمس صانع المراكب وكأنه يرى ما يقول ماثلاً أمامه :

— ذات مساء فى يوم من أيام الربيع ...

(٣)

كانوا قد فرغوا من تخييط الملكة ، وأخذوا يلفونها فى الأربطة البيضاء قبل أن توضع فى التابوت... وكانت الوصيفة بين الحاضرين دامة العينين ... فاقترب منها كاهن صغير وأسر فى أذنها كلاماً ، فهزت رأسها برفق إشارة الموافقة ... وما أن انتهى عملها ، حتى انسلت خارجة إلى دار خطيب المآل... حيث وجدته منفرداً بصديقه النجار ... فما كاد يراها داخلته حتى نهض يستقبلها بقوله :

— لى عندك رجاء ! ...

هذا الرجاء لم يكن له هو فى الحقيقة .. إنما هو ثمرة منافشات وتوسلات دامت أياماً بينه وبين صديقه ... لم يكن للصديق من مطلب فى الحياة بعد موت الملكة إلا الحصول على تمثال لها ، يعيش إلى جواره ، ويثبت حبه الخالد... لكن كيف الحصول على تمثالها ؟ . إن هذه الملكة الشابة لم يصنع لها غير بضعة تماثيل رسمية لا سبيل إلى الوصول إليها... ثم هى فوق ذلك غير متقنة التصوير ولا بارعة التعبير... فهذه الملكة المسكينة لم يمد لها فى العمر حتى يحفل بأمرها الفن ... فقد كان أكثر المثاليين الرسميين مهتمين بتماثيل الملك ... وعندما قال المثال لصديقه النجار إنه لم يكلف بصنع تمثال واحد

للملكة ، إنما كان صادفا ... عندهم طلب إليه الصديق أن يصنع لها
تمثالا من أجله ... من أجله هو الذى أحبا حياة وميتة دون أن
يخاطبها أو تخاطبه ... دون أن تعرف من هو ... دون أن تشعر
بحبه ... دون أن يصل بينهما غير شمع من نظرة ، فوق هوة
كتلك التى تفصل بين أرض ونجم ... وحى النجم قد انطفأ ...
كل ما يريد من الحياة هو تمثيلها ... أيعض عليه الصديق بصنعه ؟ ...
ولكن كيف يستطيع المثال صنعه وذاكرته لا تعى من الأصل غير
أثر باهت المعالم ... فهو لم ير الملكة إلا فى شبه لمحة خاطفة ،
ولم يتأملها التأمل الكافى .. وهو الآن لا يذكر من ملاحظها شيئا ...
لو استطاع أن يشاهد وجهها الآن ولو لحظة لأمكنه صنع
المثال ... عنده صاح به صديقه أن هذا الأمر ليس بعسير ...
إن الوصيفة خطيبته ... وفى مقدورها أن تدبر له الوسيلة ، فيرى
وجه الملكة قبل أن يحكم عليها غطاء الثابوت ... ومن يدرى ؟ ...
ربما أتاح له الصديق وأراد له القدر أن يصنع فى الفن أثرا عظيما ...
فهو لا يكلف بتمثال رسمى لإرضاء الملك ... ولكنه يخلق فنا من
وحى الشعور ... وهكذا تم الإغراء ... وتحمس الفنان ، إرضاء
للفن وللصدقة فى آن ...
... إلى عندك رجاء ! ...

قالها المثال للوصيفة مكرراً ... ثم شرح لها الموضوع . . .
فأجفأت وارتاعت ... ما هذا الجنون ؟ ... أهنالك مخلوق يفكر في
رؤية ملكة ممتدة وهي في تابوتها ليصنع لها تمثالاً ؟ ... هذا
بالطبع كل ما فهمته ... فالمثال لم يجرؤ أن يفضي إليها بحب صديقه
الملكة ... كل ما قال هو أنه يقدسها ولم يجد بين تماثيلها ما يستحق
الخلود ... وأن الفنان قد راقب له فكرة القيام بهذه المهمة ،
ويرجو من خطيبته أن تعاونه على تحقيق هدف في جليل ...
وانتهى الأمر بالوصيفة أن أذعنت لرجاء خطيبها الفنان
وقالت :

— فلنسرع إذن قبل أن يغلق التابوت عند الفجر .. ورسمت
الخطئة ... إنها تعرف سرداباً خفياً يصل إلى مكان التابوت وصفته
لها ... وأوصتهما أن يجيئا في ثياب السكينة ، عند منتصف الليل ...
وستكون هي في الانتظار عند باب السرداب ... وتركتهما وهي
تحذر حبيبتها الفنان باسمه :

— وحذار أن تكثّر الليلة من الشراب ! ...

(٤)

اتفق الصديقان على اللقاء في الحان المعهود عند هبوط
الظلام ... وأقبل صانع المراكب فوجد صاحبه الفنان قد سبقه ..

وملا جوفه ببضعة أقداح وهو يقول متميلاً :

— لا تخش شيئاً ... إن قليلاً من النبيذ يشحن ذاكرتى ...
وأنا أحوج الناس لليلة إلى الذاكرة القوية... فعلى صفحتها ستطبع
صورة النموذج ... ذلك الانطباع الذى سيمدنى بالوحى ...

فنظر إليه صانع المراكب بقلق :

— ولكنك أسرفت ...

فقال الفنان ضاحكاً ضحكة صاخبة :

— أنا؟ ... مطلقاً ... إنى أعرف معيارى ... ويجب أن أزيد
قليلاً عند القيام بعمل هام ... تلك عادتى ... وبهذا صنعت من
التأثيل أعاجيباً ...

ورفع قدحه وجعل يجرع حتى سقط القدح من يده ...
وعندئذ لم يتمالك صديقه وأنهضه بعنف وخرج به من الحان ...
وسار به يسنده حتى لا يستط، إلى أن بلغا دار الفنان، وكان من
المتفق بينهما أن يغيرا فيه ثيابهما، ويرتديا ثياب الكمان ... لكن
المثال ما كاد يدخل داره ويلبس جسمه فراشه الناعم حتى ارتقى
ارتقاء لا أمل بعدها فى يقظة قريبة ... وحن الموعد المضروب
عند منتصف الليل والصديق يحاول عبثاً أن يفيق صديقه المخمور ...
حتى أدركه اليأس وقال فى نفسه :

— أهى مشيئة الآلهة ؟ ... أهو سوء حظى ١ ... ما العمل
الآن ؟ ... الوصيفة تنتظر ... وهذا الحيوان فى سباته ١٢ ... أكل
شئ ضاع ١٣ ...

وفكر ملياً ... ورأى الموقف بوضوح ... أما تمثالها فلا أمل
فيه الآن ... ولكن أترك الوصيفة فى الانتظار طول الليل دون
جدوى ؟ ... أم يذهب إليها ويخبرها بما حدث ... ولماذا
لا يذهب ؟ ... بل ولماذا لا يلقى هو النظرة الأخيرة على حبيبته
المسجاة فى تابوتها ... تلك النظرة التى ستطبع ولا شك تمثالها فى
رأسه هو إلى الأبد ، أقوى وأصدق من أى تمثال من الحجر ١ ...
وارتدى هو ثوب الكاهن ... وترك صديقه مرثمياً على فراشه ،
وغادر الدار إلى مكان السرداب ...

وهناك وجد الوصيفة منتظرة فى الموضع المتفق عليه ... فلما
رأته وحده تغير وجهها وبادرت تسأل :

— جئت بمفردك ؟ ...

فأجاب بإقتضاب :

— خالف نصحك وشرب ...

— وأين هو الآن ؟ ...

— نخبور فى فراشه ...

فتحركت مديرة ظهرها تريد الانصراف لشأنها ، وقد فهمت
أن الأمر قد انتهى عند هذا الحد ... ولكن صانع المراكب
استوقفها :

— دعيني أنا أنظر إليها ...

— أجننت ؟ ...

— أتوسل إليك ...

— وما غرضك أنت من ذلك ؟ ...

— نظرة واحدة ... أخيرة ...

— أفى عقلك مس ؟ ...

فأمسك بيدها كما يمسك مخلب الصقر بالحمامة ، وقال بصوت آمر
حاسم أجش مخيف :

— قوديني إليها ...

ودفعها أمامه ... فلم تجد بداً من الطاعة .. فشئت به في المسالك
المظلمة الطويلة لهذا السرداب الخفي ، إلى أن بلغت نهايته ، فطرقت
بيدها جانباً من الجدار ، وإذا بمجر كبير ينفرج عن باب يؤدي
إلى قاعة متسعة مزينة بالنقوش مضادة بمصاييح مستترة في كوات
بالحيطان وخلف الأعمدة ... ولم يكن بالقاعة أحد فقد غادرها
السكرتيرة منذ قليل ... وكان لها باب كبير مغلق ، وقف عليه الحراس

من الخارج .. ولم يجد صانع المراكب في القاعة ما يلفت نظره المعتاد على هذه الأمكنة المقدسة ، ولم يحاول أن يبحث ببصره هناك إلا عن شيء واحد هو : التابوت ... وقد وجد موضوعاً فوق مصطبة من الحجر في صدر المكان ، وقد سلط عليه نور خفي ، يوحى إلى الناظر أنه منبعث من إشعاع خشبية المظلي بالألوان أو منبعث من ذلك الجسد المسجى داخله ... ووقف صانع المراكب جامداً أمام التابوت لحظة ... إلى أن ذهب عنه الروع فدیده إلى غطاءه الخشبي ، يريد رفعه ، فتعلقت بذراعه الوصيفة تحول بينه وبين ما يريد ، فتخلص منها. وتقدم إلى الغطاء بذراعيه القويتين فكشفه ، وظهر من تحته جسد الملكة ملفوفاً في الأشرطة البيضاء ... قد سمر الصانع في مكانه وارتعد ... ودق قلبه دقات سريعة ... وكان رأس الملكة ككل جثمان مخفياً في اللفائف .. فتجلد ومد أصابعه لينحى الأربطة عن وجهها ، فجذبته الوصيفة بعيداً وهي تهدر من الغضب هديرأ مكتوماً :

— كف عن هذا ! ... كف عن هذا ! ... أبها الوحش النابش للقبور ! ... أخرج وإلا صحت ! ...

فأسرع ووضع كفه على فمها ... فقاومته ... وأرادت الإفلات والصياح ، فقبض على عنقها ... وأذهله الموقف عما

فعل ... ولم يدر هل ضغط بقبضته أو لم يضغط ... ولم يقدر
مدى قوة أصابعه ... كل ما وعاه هو أنها سقطت من بين يديه على
الأرض ... فوقع في الحيرة لحظة ... لكنه تذكر ما جاء من
أجله ... فترك الوصيفة في مكانها ملقاة ، واندفع إلى الملكة المحنطة
فحل الأربطة عن رأسها ، وانكشف وجهها الجميل الشاحب ، وقد
زاده صفاء الموت حسناً... أين المثال الذى يستطيع صب هذا الجمال
في حجر ؟ ... هذا ما دار في ضمير العاشق الدامل وهو يتأمل هذا
الوجه الإلهى ... ولم يكن في تلك اللحظة الفريدة يتأمل بوعى
عادل ... فقد كف عقله عن الحكم والتحكم ... إنما هو شعور
بملاكيانه كالإشعاع المدمر ... ولم يستطع أمام هذا الجمال أن
يتقدم أو يتأخر ... جمده في مكانه ، وأيقن أن من المستحيل عليه
الإصراف الآن ... قوة خفية تربطه إلى هذه الملكة المحنطة ...
لا فرار منها ولا فكك ... إما أن يدفن معها أو تعيش معه ...
وهنا لمعت في أعماقه فكرة ولم يتردد عن تنفيذها ولم يحجم ، وهل
يتردد الإنسان عن انتزاع الروح التى بهما يحيا من أى مكان ...
وتقدم من ساعته إلى الجثمان المحنط فتزع عنه اللثف ورفعته من
التابوت ودثره في رداءه واحتضنه بين ذراعيه وأراد أن يمضى به
دون وعى من حيث جاء ... فعثرت قدمه بالوصيفة الملقاة على

الأرض ... فثاب قليلا إلى رشده ... ورأى ما هو فيه من حرج ...
أيزهـب بالملـكة ويترك التابوت هكذا فارغاً ، والوصيفة هكذا
ملقاة ... إن الدنيا كلها ستقوم ونقوم بعد قليل ... وساورته
الأفكار المتضاربة .. ماذا يفعل ؟ ... أبعـضى ؟ ... أيرجع ؟ ...
وخطر له خاطر ... لم يتردد هذه المرة أيضاً في تنفيذه على الفور ...
وأسرع إلى الأربطة البيضاء فالتقطها ولف بها جسم الوصيفة
ورأسها ، ثم أرقدها في التابوت موضع الملكة ...
وحمل الملكة على كتفه وخرج بها من السرداب ...

(٥)

طلع الفجر ... وبدأت مراسم الاحتفال الديني بحمل التابوت
إلى المقبرة الملكية ... فاحشد الكهنة ... وحضر فرعون وأسرته
وعلمت الترانسل ... وقدمت القرايين ... وألقيت نظرة أخيرة
على الجسد الملفوف في الأربطة ، لا ترى منه شعرة ، وأحكم
غطاء التابوت ، ثم نقل إلى القبر السرى الذى لا يعرف مكانه
غير أشخاص معدودين ... وفرغ القوم من أمر الجسد ، وانجهوا
إلى العناية بمصير الروح ... فاقترب الكاهن الأكبر من مركب
الشمس الذى أعد للملكة فباشر المهمة المعهودة ... وقام بالطقوس
المعتادة - ونطق بالكلمات الدينية ، والتعاويذ السحرية ، ثم نهض

يعلن إلى الملائكة : أن مركب الشمس قد تحرك حاملاً روح الملكة المقدسة نحو السماء ، وأنه يسبح الآن في الفضاء ، تحف به أنعام التراتيل والغناء ...

(٦)

في تلك اللحظة ، كانت الملكة في مركب حقاً ... ولكن ليس مركب الشمس ، بل مركب في النيل ، يسبح بها إلى الضفة الأخرى ... كان جسدها المنحط محتفظاً بطراوته ولدانته ونضارته ، وأريج العطور من حولها منتشراً ... وكانت موضوعة في مقعد المقدمة وضع الجالس المتكى ... وأمامها جاس سارقها صانع المراكب يضرب بمجدافيه صفحة الماء ... ويرنو إليها ويقول : — تلك هي الزهرة التي طالما حليت بها ... معك ! ... نعم ... أنت الآن هنا معي في مركبي ! ... يا للسعادة ! ... ترى ماذا كنت تفضلين ؟ ... هذه الزهرة معي في مركب النيل ؟ ... أو تلك الزهرة الأخرى بمفردك في مركب الشمس ؟ ...

(٧)

أفاق المثال من سكره في الصباح ، فوجد نفسه بثياب البارحة في فراشه ... ففرك جبينه محاولاً التذكر ... ولم يلبث أن أدرك ما حدث ... فقام وخرج باحثاً عن صديقه وخطيبته ، ليعبر لها

عن أسفه... أما الخطيئة فلم يكن من السهل مقابلتها في ذلك اليوم...
فقد شاهد القصر هائجاً مائجاً بالكهنة والحراس ومعدات
الاحتفال... وأما الصديق فلم يجد في الحان ولم يصادفه في أى
مكان... وخطر له آخر الأمر أن يبحث عنه في دار له مهجورة ،
في الضفة الأخرى من النيل كان قد تركها لبعدها ، وجعل منها
اليوم شبه مخزن لأخشابه وأدواته ونماذج مراكبه الشمسية ...
فعبث النيل إلى تلك الدار ، ولم يكند يقترب منها ، حتى سمع شبه
همس وهممة ومناجاة... فطرق الباب... فلم يفتح سريعاً ... فأعاد
الطرق ، وانتظر وقتاً أكثر قليلاً مما ينبغى في مثل هذا الحال ،
وإذا الباب يفتح بحد ، ويطل منه رأس صديقه ، فما أن يراه حتى
يتغير وجهه ... ولكنه يتماسك ويخرج إليه ، متحاشياً دعوته إلى
الدخول ... وظن المثال أن هذا الاستقبال الفاتر أمر طبعى ،
بعد أن أضاع على صديقه فرصة البراحة يسكره... فتبادر يقول له :
— إنى فى شدة الأسف ...

فلم يبد على الصديق أنه فهم أو تذكر ... فقد قال متسائلاً
ببساطة من لا يحمل مرارة ولا عتبا :
— لماذا ؟ ...

فخلق المثال فى وجه صديقه ، فلم يجد به إلا أثر القلق

والارتباك والرغبة في غلق باب الدار والابتعاد بالضيف عن
معتبته ... فقال له مازحا :

— أليس عندك هنا ما يشرب ؟ ...

فقال صانع المراكب في شبه ارتياح :

— لا ... لا ... هذا مكان مهمجور كما تعلم ... فلنذهب عنه ...

فلنذهب ... لقد جئته اليوم لأحضر بعض الخشب ... فلنتقابل
في الحان الليلة ... إذا شئت ... في الحان ... في الحان ...
إلى اللقاء ! ...

(٨)

وفي ذلك اليوم وقع في ساحة المعبد حادث غريب .. فقد أقبل
رجل من عامة الشعب يجرى ويصيح معلناً أنه شاهد بعينه في
السماء قرصاً طائراً يشع نوراً قوياً أخضر اللون ، ما يشك في أنه
مركب الشمس الذي يحمل روح الملكة الشابة في رحلتها
السمائية ... واجتمع الناس حوله واشتد اللفظ ... وتفاقم الجدل ...
وبلغ الأمر مسامع الملك ورجال الدين ... فجاءوا بالرجل
واستجربوه فأصر مؤكداً :

— رأيت بعيني ! ...

وجاء فرعون بكبير الكهان وسأله :

— أيمكن لمركب الشمس أن يرى في السماء بالعين؟ ...
فأجاب السكاهن بلمهجة قاطعة :

— مستحيل ...

— وما القول فيما يقرره هذا الرجل؟ ...

— إنه كاذب أو مخدوع ... ولا يعقل أن يظهر في السماء
لأعين العامة ، المركب الذي يحمل روح تلك الملكة الشابة ...
ولا تظهر قبل ذلك المراكب التي تحمل روح فرعون الكيين
والدكم أو الفراعين العظام من أجدادكم ... هذا رجل كاذب خادع
يجب أن يموت ! ...

— ألا يمكن أن يكون هذا المركب الطائر ذو النور الأخضر
لأحد الآلهة؟ ...

— لو كان لأحد الآلهة لواته عيوننا نحن الكهنة لأعين رجل
من عامة الشعب ! ...

— ولماذا لا تقول أيها السكاهن الأكبر إن سحر استطاع
آخر الأمر أن يحدث هذه الأعجوبة ...

— سحرى ؟ ...

لفظها كبير الكهنة متمهلاً متأملاً ... أيقبل هذا التفسير مع
ما فيه من فضل يغرى بالزهو أم يرفضه ؟ ... إذا قبله فقد يطالب

ففيما بعد يظهار مراكب الشمس في السماء إظهاراً مرئياً للعيون ...
وهو مالا قبل له به ... الا ضمن له إذن أن يرفض ... وأن يبقى
سحره في منطقة الروح وحدها ... وعندئذ صاح :
— كلا ... كلا ... إن هذا ليس سحري ... ولكنه سحر
للمتأمرين على ديننا القديم ... هذا الرجل يجب أن يموت ! ...

(٩)

وفي ساحة الموت ، وقف الرجل أمام قضائه من الكهنة
يردد صائحاً :

— رأيت بعيني ! ...

فقال له القضاة :

— أنكر الروح ؟ ...

فقال بإصرار :

— لا أنكر الروح ... ولكني رأيت الواقع ! ...

وإن الإصرار حتى الموت له دائماً قوة السحر ، فهو يخلق
أحياناً الإيمان في النفوس ... وكان لموقف هذا الرجل الناهض
من بين الشعب ليتحدى القوة الهائلة الممثلة في فرعون والكهنة ،
تأثير في الناس ... فقد تهاست جماعة منهم مؤمنة بما يقول :
— لا شك أنه صادق ... إنهم سيقتلونه لأنه رأى ما لم

يستطيعوا هم أن يروه ...

(١٠)

مضت أيام والمثال يبحث دون جدوى عن خطيبته الوصيقة... وسأل عنها في القصر؛ فقبل له : ما من أحد رآها منذ اليوم الذي دفنت فيه مولاتها ... وليس هذا بغير في نزارهم من وصيفة أمينة ، يابى عليها الوفاء أن تخدم غير ملكتها ، أو تبقى في مكان ضمهما معاً ردتاً من الزمن ... واسكن أين ذهبت ؟ ... وهل يطول اختفاؤها حتى عنه هو ؟ ... إنه لم يرها منذ الساعة التي تم فيها الاتفاق على اللقاء عند السرداب ... ومن أجل صديقه ... وهذا الصديق أيضاً ما خطبه ؟ ... ماذا دهاه ؟ ... إنه يهرب منه الآن على نحو مريب ... وإن سلكه معه كان حتماً غريباً يوم ذهب إليه في داره المهجورة ... ما من شك في أنه عمل على إبعاده عن تلك الدار ... لماذا ؟ ... نعم ... إنه يذكر جيداً الآن ما سمع قرب الباب ... تلك المهمة ... تلك المناجاة التي كان يصل همسها من الداخل ... ترى من كان بالدار وقتئذ مع صديقه ؟ ... أمى امرأة ؟ ... يا للويل ! ... من تكون ؟ ... أتراها هي ؟ ... أتراها خاتمه مع الصديق ؟ ... لم يطق تلك الفكرة ! ... وعزم على أن يدم الدار ... وقام لساعته وهب النيل إلى الضفة الأخرى ،

ومضى تَوّاً إلى دار صديقه، وطرق بابها طرقة شديداً، فلم يجبه أحد ... فدفع الباب بعنف فانفتح ... ودخل ... فلم يجد أحداً داخل الدار ... غير أن عينه لمحت خلف أحد المراكب المسندة إلى الحائط باباً صغيراً يؤدي إلى حجرة مفروشة ... فداف إليها وإذا هو يتسمر في مكانه، وقد جمد الدم في عروقه ... فقد وجد نفسه أمام الملكة الشابة متكئة على فراش وثير ... وثاب إلى رشده بعد قليل، وطافت برأسه الخواطر سراعاً ... وأدرك ما يمكن أن يكون قد حدث ... ولكن السؤال الرهيب هو : — من التي حملوها في التابوت إذن، ووضعوها في المقبرة ... ولم ينتظر جواباً ... وخرج من الدار كالمصعوق ...

(١١)

لم يدرك المثال ماذا يفعل إزاء كل هذا ؟ ... ومشى في الطرقات يسائل نفسه كالخجول : من المدفونة في قبرها ؟ ... أين اختفت خطيبته ؟ ... وهل بين الأمرين علاقة ؟ ... أيمن أن تكون المدفونة هي ؟ ... يالللهم ! ... وكيف دفنت هكذا ؟ ... ولماذا ؟ ... مهما يكن من أمر فلا بد من فتح المقبرة ... فالمملكة ليست راقدة فيها ... يجب أن يذهب إلى فرعون وإلى الكهنة وصيحه : — هلبوا ! ... هلبوا ! ... المملكة ليست في المقبرة ... واسكنهم

سيقبضون عليه ويقولون له : كيف عرفت ؟ ... فماذا يجيب ؟ ...
أيدلم على دار صديقه ويوقع به قبل أن يتبين حقيقة المدفونة ؟ ...
لا ... لن يفعل ذلك ... فليقل إنه رأى فى الحلم أحد الآلهة يخبره
بهذه الحقيقة ...

واتجه من الفور إلى كبير الكهان وأعلن إليه الأمر ...
فنهض صائحاً :

— ماذا جرى اليوم ١٩ ... كل الناس يرون الآن الآلهة
إلا نحن الكهنة ١٩ ...

ثم التفت إلى المثال مهدداً :

— أتعرف عاقبة هذا الإدعاء والكذب ؟ ...

فلم يتردد المثال وقال باطمئنان :

— الموت ... وأنا مستعد له ، إذا اتضح كذبي ... والأمر

بسيط ... افتحوا المقبرة تعرفوا الحقيقة ...

وقبل فرعون والكهنة هذا التحدى ... وفتحت المقبرة ...

وكشف غطاء التابوت ... وإذا الجميع أمام منظر تقشعر له

الأبدان ... فقد شاهدوا أسنان امرأة برزت من بين أربطة

الوجه .. وكأنها كانت تجاهد فى تمزيقها حتى ماتت عليها ...

وجرد الجسد من لفائفه فإذا هو جسد الوصيعة ... وبهت

الجميع . . . وصاح فرعون :

— أين الملكة ؟ ...

وأفاق المثال من ذهرله وبخيمته وغيظه المكتوم ... وأدرك

جريمة صديقه ورفع رأسه قائلاً :

— هناك في الضفة الأخرى .. دار صانع المراكب الشمس ...

(١٢)

في تلك الأثناء كان صانع المراكب قد عاد إلى داره ، فوجد

الباب مفتوحاً ، وعلى العتبة آثار أقدام ، فتملكه الخوف ، وخيل

إليه أن أمره قد انكشف ، فأسرع وأعد مركبه ، وحمل الملكة

وأزمع الرحيل والحرب ... وكان الليل قد أقبل ، فاتخذ منه سقراً

ودرعاً ... واشتد في التجديف منطلقاً بمركبه نحو الجنوب ...

(١٣)

وجاء الحراس والكمينة إلى الدار ... وفتشوها فلم يجدوا فيها

أثراً لأحد ... فالتفت أحدهم إلى المثال وصفعه قائلاً :

— أيها الكاذب ؟ ... أين الملكة ؟ ...

أنت سارقها وستلقى جزاءك ...

ولذا أخذ الصيادين جاء يقول :

— أبصرت رجلاً يحمل جسد امرأة في قارب ويسرع في

الذيل نحو الجنوب ...

فانطلق الحراس والسكينة إلى راكبهم حاملين المشاعل المضئمة
في أثر الملائكة المسروقة ، وكأنه موكب النور يشع روحها في رحلة
السماء ... وأبصروا آخر الأمر المركب الهارب ، فاشتدوا
نحوه ... واستدار صانع المراكب ينظر خلفه ، فرأى القصاص
يدنو منه ، وأيقن بالهلاك ... فترك المجذاف ، وركع أمام الملائكة
الموضوعة أمامه وقال :

— آن لنا أن نفرق ... شكراً لك أيها الحبيبة على ما أعطيتني
من لحظات سعادة ... ان أستبقيك طويلاً هاهنا ... ولن أحول
بينك وبين سمائك الأبدية ... أما أنا فإلى الظلماء التي تنتظرني ...
وداعاً . . .

وإثم يدها بخشوع ... ثم قام منتفضاً وألقى بنفسه في الماء ...
فالتهمته التماسيح ...

(١٤)

أعيدت الملائكة إلى تابوتها ... ولكن المثل أثار مشكلة حيرت
السكينة ... فقد قال في جموع الشعب إن الوصيفة قد ارتفعت
بروحها فوق مركب الشمس بدلاً من الملائكة ... فقدموه إلى
الحاكمة ... وقال له الكاهن الأكبر :

— أتدرى ما هو عقابك ؟ ...

فقال الممثل :

— أدرى ما هو أهم من عقابي ؟ ... تلك الحقيقة التى
اعترفت بها أنت أيها الكاهن الأكبر . . . أتذكر أنك قمت
بمراسيمك الدينية ونطقت بكلماتك السحرية نحو الجسد الذى رقد
فى التابوت ؟ . . . ثم أعلنت أنه ارتفع على مركب الشمس إلى
السماء الأبدية ؟ ... هذا الجسد كان لمن ؟ ... ألم يكن للوصيفة ؟ ...

فقال الكاهن بحدة :

— لا يمكن أن يرتفع روح الوصيفة إلى السماء ...

فقال الممثل :

— إذن سحرك كان باطلا ...

فارتبك الكاهن قليلا وأطرق السكينة من حوله حائرين . . .
ذلك أن الطقوس التى أجريت إما أن تكون صحيحة وبهذا ترتفع
روح الوصيفة إلى السماء ، وإما أن تكون باطلة لا ترتفع أحدا ...
والكاهن يصر على أنها صحيحة ... وأنها رفعت بالفعل ، لأنه
أعلن ذلك يوم الاحتفال بالدفن ...

فكر الكاهن ملياً ثم قال :

— إن السحر صحيح ، وقد رفع روح الملكة ، وهذا ما أعلنته

من قبل وأعلنه اليوم وأؤكدده ... لأن روح الوصيفة لا يمكن أن
يرفع إلى السماء على مراكب الشمس ...
فصاح المثال :

— ولم لا ؟ ...

فقال السكاهن بعنف :

— لأنها من الشعب ... ومراكب الشمس لا تحمل غير
الملوك ...

— أو لا يمكن لأبناء الشعب أن يرتفعوا يوماً على تلك
المراكب كالملوك ؟ ...
— لا ...

فلفظ المثال صيحة ثائرة :

— هذا ظلم ! ... هذا ظلم ! ...

فارتفعت أصوات الإستنكار من السكينة ، وتمايلوا يتهامسون
ويقررون أن هذا التأثير قد فاه بأمر عظيم ؛ لا ينبغي أن يظل
بعده في الأحياء ...

وحكموا عليه بالموت ...

واجتمع الناس في ساحة الموت ينظرون إليه ، وهو باسم
الشجر ، هادىء النفس ، فذكرهم منظره بمنظر ذلك الرجل الذى

أُعدم بالآمس ؛ لأنه رأى شيئاً أنكره الباقون ...
وقال بعض الناس لبعض ساخرين :
— إنه يريد لروح الوصيقة خطيبته أن يحمل على مراكب
الشمس التي تحمل الملوك ...
وقال البعض :

— لا تسخروا منه إذا أراد لوصيافته ذلك ... فعنى هذا أنه
يريد لنا جميعاً ذلك ! ...
— لنا جميعاً ؟ ...

ونظروا إليه وهو يلفظ آخر أنفاسه ، فوجدوا على فيه
ابتسامة صافية رضية ، وكأنه يجيبهم مبشراً ...
— نعم ... ولم لا ؟ ...

* * *

وهكذا تنتهى هذه القصة التي لم يذكرنا لنا التاريخ عنها شيئاً ...
فمؤلفها يخط بحروفه ونقوشه على الأحجار غير أخبار الملوك ...
أما موت هذين الشهيدين من شهداء مراكب الشمس فلم ينقش
خبره على حجر ، لكن نبتت بذرتة في القرون والأجيال ،
تروى بالدم ، وتنمو وتمتد لشجر فصيلة الرجال المطالبين بحق
الرأى وحق الشعب ...

فهرست

صفحة

٧	مقدمة
٩	ليلة الزفاف
٢٣	طريد الفردوس
٦١	لا كرامة لنبي في وطنه
٦٨	الدنيا رواية
٨٦	مدرسة المغفلين
٩٨	الشيخ البابيسى
١٠٥	إبليس ينتصر
١١٠	نصيب
١٣٦	كليوباترة وملك
١٥٤	موقف حرج
١٦٢	مراكب الشمس

Библиотека Александрина



0321565